الهيئة العامة السورية للكتاب

دار البعث

الى الشاعر محمود علي السعيد
مع خالص المودة
والاحترام
يوسف

دمشق في
١٩/١٠/٢٠٠٦

دمشق التي عايشتها

تأليف

يوسف سامي اليوسف

الكتاب الشهري الثامن

يوسف سامي اليوسف

ولد الكاتب الفلسطيني يوسف سامي اليوسف في قرية لوبيا الراخمة على تلة عالية في الجليل الأدنى إلى الغرب من بحيرة طبريا الخلابة، وذلك سنة ١٩٣٨. وقد نزح مع ذويه عن الوطن في عام النكبة إلى لبنان، حيث أقام في مدينة بعلبك زهاء ثماني سنوات. ثم رحل إلى دمشق التي لا يزال يقيم فيها حتى اليوم.

عُين مدرساً للغة الإنجليزية في مدارس الأونروا التابعة للأمم المتحدة، وظل في هذه المهنة ثلاثين سنة. كما أنه قد بدأ النشاط الكتابي سنة ١٩٧٣ كناقد أدبي، فأصدر عدداً من الكتب، منها ماهو في الشعر الجاهلي، ومنها ماهو مكرس لنظرية الشعر. وكتب في الصوفية، وكذلك في التاريخ. فقد نشر كتاباً عنوانه «تاريخ فلسطين»، وآخر عنوانه «حطين».

وفي الفترة الأخيرة أصدر كتاباً في ثلاثة أجزاء عنوانه «تلك الأيام». والحقيقة أن هذا الكتاب هو سيرة حياة العالم طوال السنوات السبعين الأخيرة، وخاصة العالم العربي، ولاسيما فلسطين وما جرى فيها منذ عام النكبة حتى اليوم. وقد فصل المؤلف في هذه السيرة تجربته الكتابية، وكذلك رحلاته في العديد من أقطار الأرض.

الهيئة العامة السورية للكتاب

دار البعث

دمشق التي عايشتها

يوسف سامي اليوسف

كلمة

سوف يحاول هذا الكتيّب الوجيز أن يشرح باختصار علاقتي بمدينة دمشق التي أتيتها شريداً ذات يوم فاستضافتني طوال عشرات السنين. لقد كنت طفلاً دون سن البلوغ عندما قدمت إليها لأول مرة في حياتي. وها أنا ذا قد بلغت السبعين، أو شخت وأنا لا أزال أعيش في أكنافها، أو داخل مجالها حصراً. ولكنها من الثراء بالمحتويات الجوهرية بحيث لا أملك أن أزعم بأنني أعرف جميع تفاصيلها، ولا حتى الكثير من أحوالها وأخبارها وما يخصها من الحقائق.

ولسوف أصب جل اهتمامي وجهدي على آثارها التي خلفها الماضي السحيق، وهو الذي مضى إلى غير رجعة، ولاسيما على الجامع الأموي الذي أحببته كثيراً جداً منذ أن رأيته لأول مرة، ولا زلت أحبه حتى يومي هذا.

ومع أني لا أدعي الإحاطة بكل شيء مما هو وثيق الصلة بهذه المدينة العظيمة، فإنني سوف أحاول أن أقول شيئاً ما في هذا الكتيب الصغير الذي لن يطال سوى بعض من شذرات الذهب الدمشقي النفيس. وربما جاز الذهاب إلى أن أي فعل إيجابي مثمر هو خير من العطالة والكسل البليد.

أولاً - نظرة على الماضي

ليس من اليسير أن يصنّف المرء كتاباً يحاول أن يحدد به شخصية مدينة من المدن، أيةً كانت، وأن يعرض مزاياها التي من شأنها أن تعيّن هويتها وجملة سجاياها ومحتوياتها الجوهرية الكفيلة بتمييزها عن بقية مدن العالم. ثم انه قد يكون أسهل على الكاتب وأهون أن يكتب عن مدينة عايشها لمدة وجيزة، من أن يكتب عن المدينة التي قضى فيها معظم سنوات عمره الطويل. فأن تعاشر مدينة خلال مدة تزيد عن نصف قرن هو أمر من شأنه أن يجعلك في حالة ألفة معها إلى حد قد يحرمك من الشعور بالدهشة لدى الحديث عن تفاصيلها، أو عن مجمل شخصيتها ونكهتها الخاصة وما تدخره من الفحوى واللباب. فمما يقبله الكثيرون أن الممارسة الطويلة قد ترمّد عنصر الدهشة في النفس حتى لا يبقى هنالك سوى السأم والملال.

ومع ذلك، فإن علاقتي بمدينة دمشق التي كانت ذات يوم تجسيداً للروعة نفسها، والتي أحسبها الأقدم بين جميع المدن الكبرى في العالم الراهن، هي من المتانة والرصانة بحيث تمكنني من الحديث عن هذا المكان الدافئ الأنيس. ففي مذهبي أن من لم يعرف دمشق أثناء الأعوام الخمسة عشر التي تلت جلاء الفرنسيين عن سوريا سنة (١٩٤٦)، ومن لم يشاهد عرس الوحدة مع مصر سنة (١٩٥٨)، وفي غضون السنوات الثلاث البهيجة التي تلت تلك السنة، قد فاته خير كثير جداً، بل ربما فاتته الغبطة، أو حتى السعادة نفسها.

يا إلهي كم كانت دمشق فاتنة ودافئة وحنونة يوم أتيتها لأول مرة في حياتي، وذلك في الرابع والعشرين من شهر نيسان سنة (١٩٥٠)، وأنا يومئذ في الثانية عشرة من سنوات عمري، أي لم أزل في طور الغرارة واليفاع. فقد كنا أنا ودمشق التي استقلت للتو عند عتبة استيقاظنا على دنيا جديدة لها روعتها وفتونها وأفراحها المبهجة للنفس. ولا غرو، فقد كانت دمشق تنتظر مستقبلاً باهراً، أو ساطع الإشراق، ولكنه تعرض للإجهاض على أيدي الانفصاليين سنة (١٩٦١).

إنها مدينة الياسمين الأبيض البسام. تستلقي على زند قاسيون، وهو الجبل الراسخ والمنتصب إلى جوارها، مارداً مهيباً كأنه حارس أزلي لا يتعب بتاتاً، بل لا يكل ولا يمل ولا يمسه اللغوب. وأن بينهما زمالة، بل صداقة أبدية، أو قل إنها تستلقي في حضنه استلقاءً غرامياً مستتباً لا فكاك له آخر الدهر.

وتتلخص واحدة من أكبر مزايا دمشق بأن لها ماضياً عريقاً وأصيلاً. فهي ترقى إلى الآلف الرابع قبل الميلاد، وربما إلى ما هو قبل ذلك بكثير أو بقليل. وقد كانت مملكتها القديمة، وخاصة في أيام (بن حدد)، ملكها الآرامي في القرن التاسع قبل الميلاد، تمتد من الثنايا حتى المجرى الغربي والجنوبي لنهر الأعوج الذي ينبع من سفوح جبل الشيخ، وهو ما كان يسمى في الأزمنة السابقة للعرب باسم جبل (سنير) وجبل (حرمون)، وهو الذي يزيد ارتفاعه عن ٢٨٠٠م فوق سطح البحر. أما مجرى نهر بردى، الذي يخترق المدينة من الغرب إلى الشرق، والذي ينبع من سهل الزبداني ليصب (سالفاً) في بحيرة العتيبة، فلا بد من أنه قد كان كله من ممتلكات مملكة

دمشق الآرامية. ولا ريب في أن هذه المدينة كلها، وكذلك غوطتها، هما هبتان قدمهما نهر بردى لكي يصنع جنة على الأرض.

ومنذ أيام (بن حدد) استطاعت هذه المدينة العظيمة أن تثبت حضورها على مسرح التاريخ دون انقطاع أو توقف. ولعل في السداد أن يقال بأن الآراميين هم من دفع بها إلى مجرى الزمن والحضور العالمي، بعد ما كانت راكدة في الآلف الثاني قبل الميلاد. فمع أنها مذكورة في السجلات الفرعونية التي تتحدر إلينا منذ زمن سحيق، فإن حضورها لم يكن غزيراً في معمعان الأحداث التاريخية العارمة، وكان الشطر الناشط من بلاد الشام هو سواحلها المأهولة بالفينيقيين. وتذكر التوراة أن (داود) قد احتلها لمدة طويلة، ولكن هذا الخبر يحتاج إلى برهان مادي، شأنه في ذلك شأن الغالبية العظمى من أخبار ذلك الكتاب الذي لا يصلح البتة كمصدر من مصادر علم التاريخ.

ومما هو جدير بالتنويه في هذا المقام أن الآراميين كانوا يسمونها (درمشق)، أي الأرض المرويّة. ومن شأن هذه التسمية الدالة أن تضمر إشارة إلى الغوطة التي خربها (تغلات فلاسر) الثالث، الملك

الآشوري الذي غزا دمشق واحتلها وسبى صناعها وأهل المهن فيها، وذلك سنة ٦٣٢ ق. م. والحقيقة أنها تقلصت كثيراً إثر هذا التخريب، مثلها في ذلك مثل بقية مدن الشام التي خربها الآشوريين ثم الكلدان فيما بعد. ومع أن هذه المدينة قد دخلت الزمن التاريخي منذ العصور الموغلة في القدم، فإنها لم تصبح مدينة عالمية إلا في زمن العرب، في العهد الأموي، يوم صارت عاصمة لواحدة من أوسع الإمبراطوريات في التاريخ. فلقد أنعشها العرب كثيراً حتى انتزعت من أنطاكيا زعامة بلاد الشام التي سماها الإغريق باسم (سوريا).ولم ينطفئ نجم دمشق منذ ذلك العصر وحتى العصر الراهن، مع أنها قد تعرضت لمحن ومجازر كثيرة.

ومن المؤكد أنها كانت مدينة كبيرة جداً بمقاييس الأزمنة الغابرة التي قلما عرفت من المدن ما يزيد عدد سكانها عن نصف مليون نسمة. فقد ذكر أبن الجوزي في «مرآة الزمن» أن الملك (أتسز)، وهو تركي سلجوقي، جزرها سنة (١٠٧٦) م، فلم يبق من سكانها سوى عشر العشر، أي واحد بالمائة فقط. وهذا لا يعني - وفقاً للظن - أن

البقية قد أبيدت بالفعل، ولكنها فرت من وجه ذلك الطاغية المجرم، عدا جزءاً صغيراً أو كبيراً حلت به الكارثة.

وأهم ما في أمر هذا الخبر أن عشر العشر قدُرّ بخمسة آلاف، كما قدر بثلاثة آلاف أيضاً. وهذا يعني أن عدد سكانها قبل المجزرة والتبعثر لا يقل عن ثلاثمائة ألف، وربما بلغ نصف المليون. وإنه لرقم يملك أن يجعل منها مدينة عملاقة في تلك الأيام. ولكن عددُ سكانها تقلص إلى خمسين ألفاً في القرن الخامس عشر الميلادي، أو التاسع الهجري، وذلك بعد ما دمرها (تيمورلنك) وأحرق جامعها الأموي الشهير.ومما يستحق الذكر في هذا المقام أن الفاطميين قد جزروها قبل (أتسز) بمائه سنة أو أكثر بقليل.

وعلى أية حال، فإن العرب لم يكتفوا بأن جعلوا منها عاصمة سياسية واقتصادية، بل أحالوها، فضلاً عن ذلك، إلى حصن من حصون الثقافة العربية الإسلامية، شأنها في هذا شأن القاهرة وبغداد وقرطبة، وسواها من المدن التي بناها العرب يوم كانوا في ريعان فورتهم. ولهذا صارت قبلة للشعراء يأتونها من كل فج عميق. فلقد جاءها كل من جرير والفرزدق والأخطل وأبي تمام والمتنبي

وجميل بثينة وعمر بن أبي ربيعة وجملة كبيرة من مشاهير الشعراء، كالششتري الذي أتى من الأندلس، وجلال الدين الرومي الذي أتى من الأناضول والعفيف التلمساني المدفون في جامع يحمل اسمه، ويقع في الطرف الغربي من حي الصالحية، وكذلك ابن مالك النحوي، صاحب الألفية المشهورة، والمقري التلمساني، صاحب "نفح الطيب" الذي جاء من المغرب، وأقام مدة في دمشق ثم رحل إلى مصر بعدما كتب جملة من القصائد في مدح هذه المدينة. وفي العصر الحديث أتاها أحمد شوقي، أمير الشعراء، وقال فيها واحدة أو اثنتين من عيون قصائده المشهورة آنذاك.

ومنذ زمن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية أخذت دمشق تبرز بوصفها مركزاً من مراكز العلم في العالم. فقد كان ذلك الأمير نفسه أول عالم في الكيمياء بين العرب.ولسوف تتطور العلوم فيها بعد ذلك العهد المبكر، ولاسيما خلال القرون الثلاثة التي تبدأ بعام (١١٠٠م). ولكن العلوم بدأت ههنا قبل هذا التاريخ بكثير، فقد كان هنالك مرصد فلكي في سفح قاسيون في القرن التاسع الميلادي. ثم إن عدداً من كبار الصوفيين قد جاء إلى دمشق سائحاً أو مقيماً. ولعل

(ابن عربي) أن يكون الأبرز بين هؤلاء جميعاً. ولكن (الغزالي) المتوفى سنة (٥٠٥هـ - ١١١١م) قد جاءها ليعتكف في إحدى مآذن الجامع الأموي مختلياً بنفسه ابتغاء أن يفتح الله عليه، فيتخلص من أزمة الريب التي أنقضت ظهره. وجاءها كذلك فيلسوف من المشاهير وهو (أبو النصر الفارابي) الذي أتى من بلاد ما وراء النهر، بعدما أقام برهة في بلاط سيف الدولة.

ولقد ازدهر علم الطب في دمشق التي أنجبت عدداً من الأطباء المتميزين، ولاسيما ابن أبي أصيبعة، وابن الدخوار، وابن النفيس، الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى في القرن الثالث عشر الميلادي. وقد وضع الأول كتاباً عنوانه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» وهو كتاب نادر في بابه، لأنه لم يترك طبيباً من المشاهير إلا وقدم نبذة عن حياته، بغض البصر عن جنسيته ولغته.

كما عرفت دمشق، أو أنجبت، مجموعة كبيرة من الجغرافيين والمؤرخين وكتاب التراجم. وأبرزهم ابن عساكر، صاحب «التاريخ الكبير» وابن خلكان المولود في أربيل وصاحب «وفيات الأعيان» والصلاح الصفدي مؤلف «الوافي بالوفيات»، وابن القلانسي، مؤلف

«ذيل تاريخ دمشق»، وأبو شامة المقدسي مؤلف «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين»، وابن العماد الحنبلي(١٠٣٢- ١٠٨٩ هـ) صاحب «شذرات الذهب»، وتاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ - ١٣٧٠ م) صاحب «طبقات الشافعية»، وابن شاكر الكتبي(١٢٨٧- ١٣٦٢ م)، صاحب « فوات الوفيات »و«عيون التواريخ»، وابن قاضي شهبا (ت ٨٥١هـ- ١٤٤٨ م)، المؤرخ المشهور وصاحب«طبقات الشافعية»، وابن فضل الله المحبي(ت ١١١١هـ - ١٧٠٠ م)، صاحب«خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» و«نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة»، ثم الحافظ الذهبي مؤلف «تاريخ الإسلام»، وابن كثير صاحب «البداية والنهاية»، وصاحب واحد من أشهر تفاسير القرآن الكريم،وابن عربشاه الذي كان رحالة، والذي كتب بالعربية والفارسية والتركية، وترك كتاباً مهماً في التاريخ عنوانه «عجائب المقدور في أخبار تيمور». وأما في مضمار الجغرافيا، فقد كان أبو الفداء، المولود في دمشق سنة (١٢٧٣) م، واحداً من أبرز الجغرافيين العرب في جميع الأحقاب، ولقد وضع كتاباً عنوانه «تقويم البلدان» لعله الأكثر دقة بين جميع الكتب الجغرافية التي وضعت باللغة

العربية طوال الأزمنة التراثية كلها. وقد اشتغل بهذا العلم رجلان دمشقيان آخران هما ابن فضل الله العمري المتوفى سنة (١٣٤٩)م وشمس الدين الدمشقي المتوفى سنة (١٣٢٦) م.

فمما هو واضح أن الحركة الثقافية في دمشق، خلال القرون التراثية، قد كانت شديدة الاحتفاء بالسِيَر والتاريخ والجغرافية، أي بالحياة أو بالأسانيد التي من شأنها أن تجعل حياة البشر طافحة بالقيمة والأهمية .

وهنالك عدد آخر من علماء دمشق المشاهير، لعل أهمهم أن يكون العز بن عبد السلام الذي أفتى ببيع المماليك كلهم، وأولهم السلطان نفسه، وابن تيمية الذي مات سجيناً في قلعة دمشق منافحاً عن الحرية ضد سلطان جائر. ثم تلميذه ابن القيم المشهور بمؤلفاته الروحية. كما أن هنالك شاعراً مشهوراً بعض الشيء هو ابن عنين الذي ذكر في شعره بعضاً من ضواحي دمشق وتفاصيلها المكانية. ولقد كان هجاء مقذعاً فهجا صلاح الدين الأيوبي، فما كان من السلطان إلا أن نفاه إلى البعيد. وفي منفاه كتب أشعاراً تعبر عن شوقه وحنينه إلى دمشق، ولكنه عاد بعد وفاة صلاح الدين وخدم

الدولة الأيوبية في عهد الملك العادل الذي سبق له أن هجاه. ومن الطرائف أن رجلاً كان يعمل حلاقاً بعد انتصاف القرن الثاني عشر الهجري(الثامن عشر الميلادي) قد وضع كتاباً يسرد فيه أبرز أخبار مدينته، وذلك في الفترة الواقعة بين سنة (١١٥٤هـ - ١٧٤١م) وسنة (١١٧٥هـ - ١٧٦٢م). ومن المعلوم أن كتاب البديري الحلاق هذا قد نشر منذ مدة طويلة تحت هذا العنوان «أخبار دمشق اليومية». ومن شأنه أن يثبت ما فحواه أن الرغبة في كتابة التاريخ لم تنقطع ههنا في أي يوم من الأيام، وأن علم التاريخ هو موضع اهتمام الانباه والاغفال، كما قال ابن خلدون في بداية مقدمته المشهورة.

لا مراء، إذن، في أن المدينة التي أنجبت جميع هؤلاء العلماء، واجتذبت إليها الكثير من أهل الثقافة والمعرفة، هي مدينة عظيمة جداً وجديرة بكل احترام وتقدير ثم إنها ، لوجه الحق، مدينة مكافحة مجاهدة تصدت للمغول عدة مرات كما تصدت للتتار الذين يقودهم (تيمورلنك) الطاغية المجرم المخرب، ودحرت الحملة الصليبية الثانية وصدتها عن أسوارها، وأحرزت عليها نصراً مؤزراً حاسماً كان بمثابة بشارة بإنهاء الحروب الصليبية لصالح العرب. فلقد هزم

كان بمثابة بشارة بإنهاء الحروب الصليبية لصالح العرب. فلقد هزم الملكان الإفرنجيان اللذان كانا يقودان تلك الحملة، أعني (لويس السابع) ملك فرنسا، و(كنرد الثالث) ملك ألمانيا، وذلك في شهر تموز سنة (١١٤٨)م. ولعل في الميسور أن ألخص خصائص شخصيتها بثلاث خصال:

أولاً - كانت مدينة عمل وإنتاج وشبع واكتفاء اقتصادي في الغالب الأعم. فهي مركز تجارة عالمية عملاقة، ومركز صناعي ضخم وأشهر صناعاتها النسيج والسلاح والزجاج والعطور والمجوهرات، ثم إنها محاطة بالغوطة التي تكفي لتزويد أية مدينة كبيرة بالأطعمة والحاجات الغذائية جملة.

ثانياً - كانت، في الغالب، تقاتل على نحو جيد حين يفرض عليها القتال، ولاسيما خلال العصرين الإفرنجي والمغولي.

ثالثاً - منذ زمن لا يتيسر تعيينه، كانت دمشق مركزاً للثقافة والمعرفة والعلوم والفنون. لهذا كله، أعجب بها جميع الرحالة الذين زاروها، ولاسيما ابن جبير وابن بطوطة. يقول هذا الأخير في كتاب رحلته المشهورة، وذلك بعدما زار دمشق سنة (٧٢٦) هـ: «ودمشق

طال، فهو قاصر عن محاسنها»، ولا أبدع مما قاله ابن جبير، رحمه الله تعالى، في ذكرها، قال: «وأما دمشق فهي جنة المشرق ومطلع نوره المشرق، وخاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها». وربما جاز الزعم بأن ابن جبير قد أصاب كبد الحقيقة حين سماها «عروس المدن» ولا يسع المرء في هذا الموضع إلا أن يأسف حقاً لأنه لا يعثر في المكتبات على كتاب واحد مختص بتاريخ دمشق الكامل، يعرضه كله عرضاً حديثاً ممنهجاً ومتسقاً أو شاملاً لجميع الأطوار التي مرت بها هذه المدينة العريقة العظيمة، منذ أن تكونت مملكتها في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد وحتى يوم الناس هذا.

❖ ❖ ❖

ما عشت في بلدي سوى عشر سنوات وحسب، قبل أن تنكبنا تلك الطفيليات المتطفلة على وطننا السليب. ولكنني عشت في دمشق ثلاثاً وخمسين سنة حتى الآن . ولهذا، وكذلك لأنني حصلت على حزمة كبيرة من أخبارها، وأحطت ببعض أحوالها وأحداثها، وعاينت جملة واسعة من آثارها، فإنني كثيراً ما خطر في بالي أن أصنف كتاباً

جملة واسعة من آثارها، فإنني كثيراً ما خطر في بالي أن أصنف كتاباً يستعرض تاريخها منذ أقدم العصور حتى يوم الناس هذا. وما منعني من ذلك سوى يقيني بأن هذا المشروع الباذخ يحتاج إلى مؤسسة، أو إلى جهد جماعي مشترك، وذلك لأن المراجع والمصادر الكثيرة أولى مستلزماته.

وأياً ما كان جوهر الحال، فإن هذا الكتيب الصغير لن يزيد عن كونه مقالا أو مسرداً وجيزاً لعلاقتي بمدينة لم تتجبني، ولكنني أتيتها لاجئاً مشرداً بغير مناعة أو حصانة. جئتها أبحث عن مأوى آوي إليه لأشعر بالاستقرار الذي يتمتع به حتى البدو المتجولون، وعن غذاء يسد رمقي ويرد عني غائلة المسغبة. فلكم هو قاسٍ هذا المصير الذي تعرضنا له نحن الفلسطينيين المنكوبين بالشر طوال السنوات الستين الأخيرة. ولكن دمشق أكرمت وفادتي وأسبغت علي نعمتها ومنحتني وافر العطاء، فعشت في شرط شامل هو أفضل بكثير مما كنت أتوقع في بادئ الأمر. ولهذا، أعني لأن هذه المدينة كانت شيئاً فاضلاً كريماً، فإن مما يحز في نفسي ويحرضها على إفراز الشعور بالأسى أن ذلك العالم الحنون الحميم والجميل اللذيذ في آن معاً، قد فتكت به يد التضخم والتورم، فولى إلى غير رجعه على المدى المنظور. ولكن الأمل هو الينبوع الذي تنبع منه حيوية البشر ونضارة

أرواحهم في كل زمان ومكان. ولهذا، فإن مما هو أمارة من أمارات العافية أن يدخر المرء الرجاء في سويداء الفؤاد ما دام على قيد الحياة، ولكم صدق الأولون عندما قالوا «**لولا الأمل لبطل العمل**».

ثانياً - الدهشة الأولى

ربما جاز لي أن أزعم بأن الدهشة أسُ الحياة وينبوعها الأغزر. ولهذا فإن الأطفال في الغالب الأعم سعداء، حتى حين يكونون مغمّسين في الشقاء والتعاسة، وذلك لأنهم مسكونون بالدهشة على الدوام. أما السعادة نفسها فهي شعور بنشوة زفافيه فحواها أن ينظر المرء إلى الدنيا فيراها طازجة يانعة كأنها قد ولدت للتو. إنها التناغم بين النفس والعالم، أو انسجام الأنا والوجود، بل الإحساس بأن الكون كله قد صار إخائيا دمثاً ونائياً عن كل ميل إلى الشر والعدوان.

ومن شيم الإنسان أن يبحث عن المتعة المحللة، وهي التي فطر على السعي وراءها دون انقطاع، سواء أكانت دينية أم فنية أو جسدية، وحين يحصل عليها سوف يجدها وقد تناسبت تمام التناسب مع شوقه إليها ورغبته فيها. فالمتعة الكاملة ما كانت، ولن تكون، إلا من نصيب المتضورين وحدهم.

وللحق أن مدينة دمشق طافحة بالمنجزات الكفيلة بإشباع رغبة المرء في المتعة الفنية، أو بما يستجيب لها على نحو قوي. وحسب المرء أن يبحث عن تلك المنجزات في جوامعها وآثارها، وكذلك في غوطتها الغنّاء التي تكاد أن تكون جنة على الأرض. ولا افتئات على الحقيقة إذا ما زعمت أن جميع أحياء دمشق القديمة هي متحف كبير قائم بذاته ليشهد على أصالتها وعراقتها وغابر أمجادها.

حين جاء بي الزمان إلى دمشق لأول مرة، شعرت بدهشة طفلية لم أشعر بها من قبل بتاتاً. فالأطفال كائنات تفرح بالفعل سواء أكانت مغمورة بالشظف أم بالترف. وربما كان السبب الأكبر لتلك الدهشة العارمة أنني أتيت من الريف إلى مدينة كبرى، وذلك يوم كنت أجهل المدينة الكبرى تمام الجهل، فقد ولدت في ضيعة تقع إلى الغرب من بحيرة طبريا، ثم طردت منها بقوة السلاح، فلجأت مع أسرتي إلى مدينة بعلبك في لبنان عام النكبة. وبعلبك يومئذ لم تكن سوى قرية كبيرة وحسب، وشخصيتها ريفية بكل معنى الكلمة. ولهذا فقد تغير عليّ كل شيء يوم أبصرت دمشق لأول مرة. فهي تموج بالناس وتمور بالحركة، وتتكدس فيها البضائع من كل صنف،

وتزدحم شوارعها بالسيارات، وكذلك بعربات الترامواي الذي كان يخترقها من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال.

ولعل أول ما يلاحظه المرء يومئذ، بعد الازدحام و الحركة، هو التباين الناصع بين القديم والحديث. فمما لا يخفى أن سوق الحميدية والسوق الطويل والجامع الأموي وسواه من الجوامع يومئذ، ينتمي إلى الماضي العريق الأصيل. ويصدق الكلام نفسه على غالبية البيوت في حي الميدان، وكذلك في حي الشاغور والعمارة فهي بيوت عربية الطراز ومبنية من اللبن الذي هو طين مضغوط. وربما كان هذا الطين أنسب من سواه لمناخ بلادنا البارد في الشتاء والحار في الصيف، وذلك لأنه قادر على عزل الداخل عن الخارج عزلاً نهائياً على وجه التقريب.

أما المرجة وما هو إلى الغرب منها، وكذلك الشطر الشمالي من المدينة، فهذا كله ينتمي، منذ ذلك الحين، إلى الحداثة التي راحت تجتاح العالم بأسره وترغم القديم على الانحسار أمام طوفانها العارم.

وحتـى وسـائل النقـل كانـت منقسـمة إلى حـديث وقـديم. فهنالـك الحناتير والطنابر التي تسير في الشوارع إلى جوار الباصات وعربات الترامـواي والـسيارات الـصغيرة. وكانـت الحنـاتير تقـف أمـام قـصر العدل، وتنقـل بعـض أنـاس الطبقـة الوسـطى إلى بيـوتهم، إذ لم يكـن التكسي متوفراً كثيراً في دمشق عند انتصاف القرن العشرين. وحـين صار شديد الوفرة فقد تلاشت الحناتير نهائياً، فلم تعد ترى إلا لماماً وحسب.

وليس هذا وكفى، فممـا كـان ناصعاً جداً يومئذ أن لبـاس النـاس مقـسوم إلى قـسمين متبـاينين تمـام التبـاين. وكـان اللبـاس القـديم لا يـزال واسـع الانتـشار، فالـشاب يلبس سـروالاً أسـود اللـون وقميـصاً، وأحياناً يلبس صـدرية أيضاً، ويلـف خـصره بزنـار مـن القمـاش، كمـا يـضع سـلكاً علـى رقبتـه وينـشره أحياناً علـى ظهـره وكتفيـه. وينـشره علـى هـذا النحـو يوحي للآخرين بأنـه مـن «القبـضايات». وأمـا الرجـل المـسن فيلـبس طربوشـاً وأحيانـاً يلـف قطعـة مـن القمـاش حـول الطربـوش تسمى غبانيـة، كمـا أنـه يلـبس معطفـاً يغطـي الجسم مـن

العنق حتى الكعبين. وربما كان هذا المعطف هو اللباس الذي يسمونه الجبة.

وأما المرأة فتلبس معطفاً أسود اللون ينسدل من الأعلى حتى يبلغ القدمين. وتلف رأسها بمنديل أسود، ولكنها تسدل على وجهها منديلاً أسود آخر، يختلف عن الأول بكونه شفافاً، وبذلك يسمح لعينيها برؤية الأشياء، وبهذين المنديلين معاً لا يظهر من شعرها ولا من وجهها شيء.

وبالإضافة إلى هذه الملابس التقليدية الموروثة عن الأزمنة الغابرة و الملتزمة بالأعراف السائدة أو المرعية، فقد كانت الملابس الحديثة منتشرة بين الناس هي الأخرى، ولاسيما بين الشبان والشابات، خاصة أولئك الذين ينتمون إلى الفئة المتعلمة. فكانت الفتيات الدمشقيات اليانعات يسرن في الشوارع وهن يلبسن التنورات والبلوزات، أو الفساتين الحديثة، ويصففن شعرهن المكشوف على نحو حضاري أنيق.

وفي الحق أن المرأة الدمشقية، في الغالب الأعم، لا تخلو من قدرة على الخلب والجذب، بل ان بعض النساء الدمشقيات، ولاسيما نساء الطبقة الوسطى، فاتنات حقاً. وربما كان في ميسور المرء، إذا أوتي

موهبة الحضور الناجي من الغيبوبة، أن يعرف المرأة الدمشقية وأن يميزها عمن سواها، من النظرة الأولى، وذلك لانتمائها إلى نمط نسوي دمشقي لا يجهله الخبير الذي عايش دمشق لمدة طويلة. فالوجوه المستديرة التي يغلب عليها البياض الناصع المشرب بشيء من الحمرة أو الشقرة الكثيفة، والعيون الواسعة العسلية اللون، والأنوف الدقيقة أحياناً، والأفواه الصغيرة، والأسنان اللؤلؤية البيضاء، هذه كلها سمات الوجه الأنثوي في دمشق التي عايشتها منذ انتصاف القرن العشرين حتى اليوم.

ولكم أساء لنساء دمشق ذلك الشاعر الفرنسي وأظنه (أبولونير) حين قال: «فؤادي ثقيل مثل عجيزة امرأة دمشقية.» ولست مفتئتاً بتاتاً، مع أني متحيز جهرة، إذا ما أكدت أن نساء فرنسا أكثر سمنة وضخامة من نساء دمشق. وأغلب ظني أن ذلك الشاعر الذي أعجبت به فرنسا ذات يوم، أطلق سهمه هذا دون أن يكون قد رأى امرأة دمشقية واحدة.

وقد أتيح لي أن أشتغل عاملاً في مطعم صغير متخصص ببيع رؤوس الغنم وأمعائها. وهو يقع في باب الجابية الذي كان جزء منه

مسقوفاً في تلك الأيام الجميلة. ومما هو جد مؤسف أن بلدية دمشق هدمت ذلك المطعم منذ زمن بعيد، وذلك ابتغاء توسيع الشارع الذي كان ضيقاً بالفعل، ويعرقل حركة السير.

وبما أنني دون سن البلوغ يومئذ، فان رب العمل، وهو رجل شديد الميل إلى الورع والتقوى، وكذلك إلى الأخلاق الحميدة، فضلاً عن أنه طيب بل نبيل، والطيبة عندي هي بيت القصيد في حياة البشر، لأنها جُمّاع الفضائل كلها، ولاسيما الرحمة والتسامح والعطف على كل إنسان يتألم، إن ذلك الرجل قد كان يأتمنني فيرسلني إلى بيته في حي (قبر عاتكة)، لأنقل الخضراوات والفواكه والزيت والسمنة واللحمة، بل جميع الحاجات المطبخية، إلى داخل المنزل الذي تعيش فيه زوجته الشابة وابنته التي تصغرني ببضع سنوات، وكذلك ابنه الذي لم يكن عمره يزيد عن سنتين أو ثلاث. أما الابن فاسمه حاتم، وأما الابنة فقد نسيت اسمها.

أتيح لي، بواسطة هذا الاتصال أن أحتك بالأسرة الدمشقية، وبالبيت الدمشقي من داخله، وهو بيت لرجل من الطبقة الوسطى أو من شريحتها الدنيا المحافظة والملتزمة بالأعراف الموروثة. كما أتيح

لي أن أدرك الفرق بين البيت الدمشقي والبيت الفلسطيني الذي أعرفه جيداً منذ أواسط الأربعينيات، يوم كنت لا أزال أعيش في ضيعتنا خلال الفترة السابقة على النكبة مباشرة. وأولى الملاحظات أن البيت الدمشقي التراثي نظيف ومرتب وغني بالأثاث والأدوات المطبخية، وتلوح عليه دلائل الشبع والنعمة قوية وشديدة الحضور. فهو مزود بالكثير من اللوازم أو وسائل الرفاه ، ولاسيما خزائن الملابس وأسرة النوم والكراسي والكنبايات التي يجلس عليها أهل البيت وضيوفهم.

وكانت زوجة رب العمل، وهي امرأة يتبدى عليها نمط الجمال الدمشقي الأخاذ، كثيراً ما تحنو عليّ بعطف أمومي رقيق وتهب لي شيئاً من الطعام الدمشقي الشهي والغني بالعناصر المغذية، وذلك بعد ما علمت أني غلام فلسطيني مشرد وفقير وبعيد عن أمي وأبي وإخوتي. واليوم بعد تصرم ثمان وخمسين سنة، لا أدري ما إذا كانت على قيد الحياة أم رحلت عنها إلى جوار ربها الرحيم.

وأياً ما كان الأمر، فقد تعرفت منذ ذلك الحين، على المطبخ الدمشقي الذي ليس في درايتي مطبخ آخر يبذه بتاتاً . وفي تقديري

أن الطبخ سر من أسرار الشخصية، ولكنه في الوقت نفسه نتاج لتطور تاريخي طويل، إذ لا شيء البتة في حياة البشر يسعه أن يكون خارج الزمان. ولا أحسب أن هنالك مكاناً على الأرض قد رحّب بالفلسطيني في عام النكبة، وإثر ذلك العام، كما فعلت دمشق حصراً، فلقد أخذت هذه المدينة على كاهلها أن تستضيف منا، نحن اللاجئين المشردين، عشرات الألوف الذين راحوا يتكدسون في بعض مساجدها، وفي مخيم قريب من حي الأمين، وكذلك في حارة اليهود الذين أخلوا بيوتهم وغادروها إلى فلسطين المحتلة، حيث أقيم الغيتو الصهيوني الكبير، ثم في بعض ضواحيها، ولاسيما جوبر وبرزة والقابون والمزة ودمر والمعضمية. وما كان لهذا الاستقرار أن يتم إلا لطيب المكان وطيبة أهله ووفرة ثرواته وخيراته، ولاسيما الخضراوات والفواكه والألبان والأجبان. ومن شأن هذه الحقيقة أن تعلل ظاهرة وجود أعداد كبيرة جداً من الفلسطينيين في هذه المدينة وإلى جوارها حتى الوقت الراهن، إذ لو لم تكن الشروط كفيلة ببقائهم في هذا المكان لرحلوا عنه منذ زمن طويل. كما أن هذه الواقعة الطيبة قد تكفي تماماً لإقناع المرء بأن له جذراً في تربة الوجود، مؤصلاً

وشديد الرسوخ، بل بأن الخير حاضر ومتوفر إلى حد يضمن استمرار الحياة على نحو مقبول، إن لم يكن جيداً أو جيداً جداً.

❖ ❖ ❖

ومن عاداتنا نحن الفلسطينيين في تلك الآونة، ولاسيما الجيل الذي أنتمي إليه والذي عاصر النكبة وخبرها، أن نقارن بيننا وبين الآخرين أيا كانوا. ولقد علمتنا الكارثة أن نتحلى بالكثير من الموضوعية النزيهة ساعة المقارنة، وذلك لأن النزاهة في الإدراك هي التي تمكن الذهن من استيعاب الأشياء كما هي، أو تمكننا نحن المعتدى عليهم من البلوغ إلى جذور نكبتنا دون إضفاءات ومواريات. لقد دأبنا على الإيمان بأن الموضوعية في صالحنا، وذلك لأنها معوان على الفهم الصافي أو النائي عن كل زيف أو تزوير.

ولهذا، فإننا كنا نعترف للدمشقيين بأنهم يتفوقون علينا ببعض المزايا التأسيسية، وبخاصة النظافة والنظام والترتيب ورصانة الشخصية، والميل إلى التقوى والورع. وهم أنضج منا وأكثر تخلصاً من فجاجة الشخصية وركاكتها أو كونها شيئاً مهلهلاً مفتقراً إلى التماسك و التراص القائم على مبدأ التكثيف. وعندي أن الفجاجة

التي تنطوي على تهلهل النسيج هي داء الكثير من سكان العالم العربي، وأنها سبب كبير من أسباب تَخلفنا وعجزنا عن الفعل التاريخي، بل إنني أجرؤ على القول بأن فجاجتنا هي شرط من الشروط التي جعلت الإمبريالية واقعة ممكنة الوجود.

ولكننا كنا ولا زلنا نبذ الدمشقيين بمزية التعلم أو الانتساب إلى المدارس والجامعات. فنحن الفلسطينيين ميالون إلى التعلم أكثر من الدمشقيين. لقد انتزع العدو منا كل شيء، اقتلعنا من بيوتنا كما يقتلع الضرس من اللثة، وصادر الأرض، أو الحقول التي كانت مصدر عيشنا الأول، فلم يبق أمامنا سوى الشهادات المدرسية والجامعية نتخذها وسائل للعمل. وهذا هو بالضبط ما تفسره تلك الظاهرة التي تتلخص بأن نسبة خريجي الجامعات بين الفلسطينيين هي أعلى نسبة في العالم كله، أما أهل دمشق فيعتمدون على التجارة والمهن والأعمال الحرة بالدرجة الأولى.

❖ ❖ ❖

ولكنني غادرت دمشق إلى بعلبك في بداية تشرين الأول أو ربما في أواسطه سنة (١٩٥٠)، إلا أنني لم أستطيع أن أفارقها طويلاً، فعدت

بعد سنة ونصف السنة. أي في أواخر فصل الربيع من سنة (١٩٥٢) وقد صرت أكبر بعض الشيء، وأكثر قدرة على الملاحظة والإدراك، وخاصة على إدراك الفروق بين الأشياء المتشابهة. وأخذت أبيع الصحف في شارع النصر الذي كان مع ساحة المرجة يشكل بؤرة دمشق، أو مركزها وقلبها النابض يومئذ، وكانت الباصات المتجهة إلى جميع أحياء دمشق تتخذ من ذلك الشارع محطة لها أو مركزاً تنطلق منه وتؤوب إليه، ولهذا السبب كان شارع النصر يعج بالحركة والناس حتى لكأنه خلية نحل نشيطة. ومما يزيد من شأنه وأهميته أن سوق الحميدية ينداح إلى الشرق منة تماماً. وسوق الحميدية يومئذ لا يبذه أي مكان آخر في دمشق كلها، وربما في سوريا بأسرها، من حيث وفرة بضائعه وتنوعها وجودة صنعها.

والتقيت في ذلك الصيف بفتى فلسطيني من جيلي كنت أعرفه سالفاً لأنه من ضيعتي نفسها. وقد جاء هو الآخر من لبنان إلى العاصمة السورية بحثاً عن عمل. كان اسمه دياب، وكان ينظم الشعر باللغة الإنكليزية، بينما كنت أنا أحاول أن أنظم الشعر باللغة العربية،

فلم أفلح، لأنه ما من أحد قد علمني العروض. وقررنا معاً ذات صباح تموزي أن نتسلق جبل قاسيون. (ظل تسلق الجبال هوايتي حتى منتصف العمر تقريباً). وكان هدفنا الإطلال على مدينة دمشق وغوطتها الفيحاء من علٍ. وبالفعل رحنا نصعد ونصعد حتى بلغنا الذروة، أو إلى حيث تتوضع الآن محطة البث التلفزيوني، ولكن بعدما أنهكنا العطش، إذ لم يكن معنا ولو جرعة صغيرة من الماء. وألقينا نظرة على دمشق التي صارت تحت البصر فبدت صغيرة جداً في تلك اللحظة الخالدة في خلدي، والرابضة في ذاكرتي لاتريم ما دمت أتنفس. أجل، بدت صغيرة إلى حد الاستهجان. وأبدى كل منا استغرابه لتلك الحقيقة على مسامع الآخر جهرة، وقد لا أبالغ إذا ما زعمت بأن دمشق يومئذ لم تكن سوى جنين، إذا ما قورنت بدمشق الراهنة الشديدة الضخامة والانتشار.

أما الغوطة فبدت شاسعة منداحة مترامية الأطراف، وممتدة إلى الشرق والجنوب الشرقي على مدى البصر، كأنها بحر من اليخضور المترع بالحيوية والنضارة. وهذا مشهد يملك أن يقنع الناظر إليها

بأن العالم ليس فيه إلا الخير، أو بتلك الفكرة التي راح يتبناها ابن سينا، والتي تتلخص بوجود خير كثير وشر قليل في هذه الدنيا. ثم إن مشهد الغوطة بمساحته العملاقة يملك أن يرسخ في المرء شعوراً بالأمن والطمأنينة والثقة بالعالم وبالمستقبل. فالمدينة التي تملك مثل هذا المستودع من الغلال والمحاصيل والخيرات الكثيرة لن تمتد إليها يد الجوع والفقر المفرط بأي حال من الأحوال.

ومما هو جدير بالتنويه أن ابن جبير المعاصر لصلاح الدين الأيوبي قد أشار في كتاب رحلته إلى صغر مساحة دمشق، وذلك حين قال: «والبلد ليس بمفرط الكبر، وهو مائل للطول، وسككه ضيقة مظلمة، وبناؤه طين وقصب.» ولكنه أشار في الوقت نفسه إلى ازدحام هذه المدينة بالسكان بقوله: «إنها أكثر بلاد الله خلقاً.» وأضاف ما فحواه أن جمال دمشق يكمن خارجها وليس داخلها، وذلك لضيق شوارعها ولأن بيوتها طينية البناء.

بيد أنني قد غادرت دمشق في نهاية العطلة، وذلك بغية الإلتحاق بالمدرسة في بعلبك هذه المرة، إذ سبق لي أن عدت إلى الدراسة في العام السالف. ولكن فؤادي ظل مقيماً في هذه المدينة التي كانت تجسيداً للروعة والعذوبة، أو ظل يتلفت إليها على الدوام، فكأنه من شدة شوقه لم يغادرها بتاتاً. وعلة ذلك أنها صارت في وجداني أماً

رؤوماً تطعمني فتشبعني تمام الشبع، وذلك لأن العمل هنا متوفر والمال ليس بالشحيح.

ولعل أهم ما في الأمر هذه المرة آن بيع الصحف قد رسخ في شخصيتي هواية محمودة لم أنفك عنها حتى الآن. وما تلك الهواية إلا المطالعة التي استهوتني فجعلتني قارئاً نهماً لا هم له قبل هم الحصول على الكتب الأدبية والفكرية. فلقد كنت أقرأ الكثير من الصحف التي أبيعها وأوغل في تفاصيلها أحياناً حتى صارت القراءة سجية أو شيمة تدخل في تركيب جبلتي أو بنيتي النفسية.

ولهذا، فقد عدت إلى دمشق في حزيران سنة (١٩٥٣) من أجل العمل. ولكنني أتيتها زائراً، أجل زائراً، وذلك في شهر أيلول، سنة (١٩٥٤)، يوم كان معرض دمشق الأول يقام لأول مرة. لقد أنشئ على الضفة اليمنى لنهر بردى إلى الغرب من جامع التكية السليمانية قبالة شارع بيروت. وللحق أنه جاء بمثابة عيد أو عرس زاهي الألوان، لا لأنه المعرض الأول وحسب، بل لأن الدنيا بأسرها كانت لا تزال بكراً ترفل في ثياب الزفاف الناصعة البياض. ولقد دخلته واستمتعت بذلك الجو الاحتفالي الذي صنعه يومئذ، واستمتعت كذلك برؤية الصبايا الدمشقيات الفاتنات وبملابسهن الأنيقة العصرية، وكذلك بأريجهن الفوّاح الذي يفعم الأنوف. فقد

كنت في بداية الصبا، إذ لم يزد عمري عن ست عشرة سنة بالضبط.

وربما حالفني السداد إذا ما أعلنت بأن الحياة في دمشق بلغت أوج روعتها ورُوائها بين أيلول سنة (١٩٥٤) وأيلول سنة (١٩٦١)، يوم فوجئ العالم بحركة الانفصال التي هندسها اللؤم والمكر، والتي جاءت بمثابة إحباط وإجهاض لجميع الآمال والتطلعات الوطنية. فقد كان للزمان حلاوة وطلاوة في تلك السنوات السبع التي راحت تنساب رهواً مثل النسائم العذبة كأنما هي منسوجة من الرهف نفسه.

ومما أذكره في تلك الزيارة السياحية أنه كان هنالك في شوارع دمشق ولد في مثل سني تقريباً يسمونه الولد الغزال. وهو لا يتكلم بتاتاً، و لكنه يركض بسرعة الغزال تماماً. أما خلاصة حكايته فهي أن مجموعة من الصيادين كانت تركب سيارة وتسير في البادية. وأثناء ذلك شاهدت قطيعاً من الغزلان، فطاردته ابتغاء اقتناصه، ولكنها فوجئت بكائن بشري عار تمام العري يركض مع القطيع ركضاً لا تقل سرعته عن ركض أي غزال آخر. فما كان من

الصيادين في تلك البرهة إلا أن تخلوا عن الصيد والقنص، وراحوا يطاردون الولد الذي كاد أن يصير شاباً. ومهما يك سريعاً ذلك الغلام المسكين، فان السيارة أسرع. ولهذا، فقد استطاع الصيادون أن يمسكوا به، وأن ينقلوه إلى دمشق حيث تم تسليمه إلى إحدى الجهات الرسمية.

ولكن سرعان ما أطلق سراحه بعدما أتلفت الجهة الرسمية شيئاً من أعصاب رجليه لكي يخسر سرعته الغزالية غير المتوفرة في البشر. ورأيته وهو يلبس بعض الملابس التي تستر العورة، ولكنه ظل حيواناً أبكم لا يتكلم بتاتاً، ويمارس طبيعته أمام الناس دون أي شعور بالحياء، ويأكل العشب الذي يهبه له باعة الخضراوات، ولقد شاهدته مراراً وهو يركض برشاقة خلف باص أو خلف عربة الترامواي، ويلحق بهما ويركب فيهما بسهولة قصوى وهما يسيران بسرعة.

ولكنني حين عدت إلى دمشق في السنة التالية، سألت عن الولد الغزال، فقيل لي بأنه مات. وأغلب ظني أنه لم يستطع أن يتكيف مع حياة المدن لأنه ابن الطبيعة بحكم نشأته وتربيته، فآثر العدم والفناء

على هذه الحياة التي لا تجانسه ولا يجانسها . وقد كان ينبغي تعليمه النطـق كـي يـشترك في مباريـات الـسباق العالميـة، ولاسـيما سـباق الماراثون، لعله أن يحرز جائزة ذهبية لسوريا فيرفـع قيمتـها بـين دول العالم.

ثالثاً - الجامع الأموي ومعالم أخرى

عدت من بعلبك إلى دمشق صبيحة الحادي عشر من شهر آب سنة (١٩٥٥). واستأجرت غرفة في بوابة الله، وكانت مدرستي في باب الجابية. وقد جئتها هذه المرة مقيماً طوال ما تبقى لي من عمر، فلم أغادرها بتاتاً إلا سائحاً وحسب، وها أنا ذا مازلت أعيش فيها حتى يومي هذا. وبعد ذلك رحت أصب الكثير من اهتمامي على مساجد دمشق وآثارها، أو على معالمها التاريخية والطبيعية في آن معاً. وصرت أتدرج نحو النضج، وصار الوعي في ذهني يتفتح باستمرار. والوعي كالفجر يبزغ رويداً رويداً، ولكنه يظل يبزغ ويشرق مادام المرء على قيد الحياة. واجتذبني الجامع الأموي أيما اجتذاب، فرحت أتردد عليه وأثابر على زيارته منذ تلك السنة الأولى وحتى الزمن الراهن، وذلك لأنه استحضار حقيقي لا للروعة وحدها، ولا حتى للأصالة وكفى، بل لسر أو لغز يعسر على الذهن أن يعثر على كنهه أو فحواه بسهولة. ولا غلو البتة إذا ما زعمت بأنه معجزه ريازية فاخرة وشديدة الندرة في تاريخ العالم العربي كله. ولهذا قد يتيسر للمرء أن يتخيل بأنه هدية أرسلتها الأزمنة السالفة إلى الأزمنة الراهنة. ويبدو لي أن من هندسه هو إنسان مأهول

برعشة القداسة فعلاً، أو لعله أن يكون مسكوناً بالتهجس للسر واللامفهوم.

وعندي أن هذا الصرح المعماري الباهر لن يفهم حق الفهم إلا أذا شوهد بوصفة رمزاً كبيراً، أو ملغمة رموز متلاحمة لها دلالة جد عميقة وعظيمة في أن معاً. وهذا يعني أن قراءة الذهن لفحواه لن تكون استبصارية أو استنباطيه إلا إذا تمكنت من تفكيك رموزه ابتغاء البلوغ إلى معانيها الأصلية. أما دلالته الكلية الأعمق فهي شديدة النصوع. انه كأهرام مصر سواء بسواء، محاولة تبذلها النفس للانتصار على الزمن وقواه التدميرية، وهذا يعني أنه رمز للبقاء والاستمرار في الوجود العيني، متحدياً فعل التصرم والزوال. وفضلاً عن ذلك، فان شخصية الأمة التي شيدته، قبل مئات السنين، تبتغي أن تؤكد ذاتها بوصفها قوة حضور عظيمة، أو قدرة على الفعل والإنجاز جديرة بالاحترام. ثم إن ضخامة حجمه أو عظمتها ما أنجزت إلا لكي تؤشر إلى كبرياء الله الذي هو أكبر من كل شيء على الإطلاق. وهذا كله يعني أن هذا الجامع، الذي يمكّن الموضوع من تشرب الذاتية فيجسّدها خير تجسيد، وبذلك تمتزج الذات بالموضوع أو الخيال بالحقيقة ــ ما أنجز إلا لكي يستضيف السر أو رعشة اللامفهوم بالدرجة الأولى، بل إلا لكي يجسد السر ويجعله ماثلاً أمام البصر والبصيرة. إنه نتاج يعمل من أجل استحضار

أجل استحضار المقدس في العيان، أو من أجل موضعته بحيث يصير شيئاً برسم الحواس.

وبهذه الاستضافة حصراً ولأنه يلون المعطى ويبذه في آن واحد، فإنه يتجاوز تفاهة الأشياء وبذاءتها وأحاديتها ورتوبها الممل، كما أنه يفتح الروح على ما يتجاوز المادة ويخلق في المصلين شعوراً بجلال الله وعظمته وتخطيه للتجربة. وإنه لشعور جد راسخ عميق وأصيل، وبذلك تتبدى وحدة الذات والموضوع بينة جلية للعيان، ويتكشف الإنسان بوصفه كائناً لا يكتفي بالمباشر و المادي، بل من حيث هو روح يتوق توقاناً منهوماً إلى ما وراء المحسوسات العيانية بأسرها، أي من حيث هو كائن يعيش في المنفى ويحن إلى الملكوت.

ولقد تأملت بعضاً من الجوامع الفاخرة في مدينة اسطنبول، ولاسيما جامع السليمانية المهيب و الجامع الأزرق الذي أحسبه تحفة من تحف الريازة في العالم الإسلامي، ولكن تلك الجوامع كلها لا تتمتع بدرجة الرشاقة التي يتمتع بها الجامع الأموي الجليل، بل إن جوامع اسطنبول لا تمنح زائرها ذلك الشعور بالإستسرار كما يفعل جامع دمشق . فمما هو بديهي أن مكان العبادة العامة، سواء أكان جامعاً أم كنيسة أو أياً كان، يجب عليه أن يخلق في سريرة النفس شعوراً بالخشوع، أو بأنها في حضرة السر الذي يند عن الإدراك.

ولكنني لم أشعر بهذا الشعور بتاتاً حينما كنت أدخل إلى جوامع اسطنبول. والذي كنت أشعر به هو العظمة أو المهابة الناجمة عن الضخامة. وللحق أني شعرت بصورة الجمال ماثلة أمام بصري عندما دخلت جامع أيا صوفيا الفاتن، ولكن هذا الجامع هو إنجاز بيزنطي وليس تركياً بتاتاً.

وربما لاحظ الحصيف أن الجامع الأموي شديد القدرة على أداء هذه الوظيفة العظيمة أداءً نموذجياً بالفعل، أقصد وظيفة خلق الشعور بأن المرء في حضرة السر القادر على إنتاج الخشوع في أعماق النفس. أما جوامع اسطنبول فلا تؤديها على خير وجه ممكن، ومما يضر ببعضها، ولاسيما الجامع الأزرق، أن العمود التركي يتصف بالضخامة المفرطة ، فهو ثخين جداً وطويل جداً، فيفتقر أيما افتقار إلى سمة الرشاقة التي لابد منها لكل معمار جميل، والتي وضعت منجزات الريازة القوطية، وكذلك التاج محل الذي بناه عاشق ولهان، بين أرقى المباني في التاريخ البشري كله. فما من مبنى يملك أن يكون جميلاً أو خلاباً إذا حلت فيه البلادة والغلظة، فافتقر إلى الرشاقة والهيف ورقة الروح.

ومما هو معلوم أن الجامع الأموي قد كان في الأصل معبداً للإله الآرامي حدد، ثم صار معبداً للإله الروماني جوبيتر، وتحول بعد ذلك إلى كنيسة مسيحية، ثم إلى جامع من أفخر الجوامع في العالم

الإسلامي كله. أما مالا أدريه فهو كيفية وصول جثمان النبي يحيى المذكور في القرآن الكريم إلى هذا المكان. فمن المعلوم أن ذلك النبي قتل في طبريا، فمن الذي دفنه في هذا الموضع يوم كان معبداً رومانياً للإله جوبيتر وعلى أية حال، فقد راح الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥) م يبنى الجامع الأموي طوال سبع سنوات، وذلك بعد ما وظف له الخبراء من الفرس والهنود والروم والسريان. ومما هو معلوم أنه تعرض لحريق أتى عليه سنة (١٣١١هـ - ١٨٩٣م)، وأعيد بناؤه من جديد سنة (١٣٢٠ هـ - ١٩٠٢م)، فصار على ما هو عليه في الزمن الراهن.هذا ما يقوله المرحوم علي الطنطاوي في كتيب له عنوانه «الجامع الأموي» ، أصدره سنة ١٩٦١ . وبفضل الإكثار من ترددي على الجامع الأموي، وكذلك بسبب طول الساعات التي قضيتها في تأملي له وتفطني لمعانيه المستورة أو المضمرة، فقد تمكنت من استيعاب شذرات من الفحوى الراخم في بنية هذا الصرح الخالد الجليل، أو الصالح لأن يكون بيت الله حقاً، وذلك لأن له من الأبهة والعظمة ما يجعله غير صالح إلا لهذه الوظيفة بالدرجة الأولى.

فأول ما يدهك من الأموي هو جدرانه الشامخة وأسواره الشاهقة التي تزينها المقرنصات من الأعلى، فتضفي على الأسوار شيئاً من جمال خاص لا تعوزه القدرة على الاجتذاب، أو على لفت الانتباه. ولعمري، إن هذا العلو الباذخ مقصود لغاية نصف مكتومة،

أو هي مخبوءة بعض الشيء. ومما قد يلوح لي أن المراد الأول هو أن تتمكن هذه الأسوار والجدران بارتفاعها الشاهق من حماية الداخل الجليل النفيس وتأييده ضد الخارج وهجماته التي تملك أن تشوه القداسة والنفاسة. فالفرق بين داخل المبنى وخارجه في هذا الشرق، الذي كان عظيم المقدار حتى عهد ليس بالبعيد، يجب أن يصان صيانة حاسمة وذلك بغية التمييز الحاد بين ما هو دنيوي وماهو أخروي. والفرق بين هذين الشيئين يشبه الفرق الفاصل بين الظاهر والباطن، أو بين الجسد والروح، اللذين لا يجوز لهما أن يتماثلا بتاتاً. فكما أن الجسد المرئي من شأنه أن يستر الباطن (الروح) اللامرئي، فإن جميع التفاصيل المرئية في أي بناء شرقي ذي طابع ديني يجب عليها أن تستر الفحوى الكلي، وكذلك المعاني الجزئية، في ذلك البناء نفسه.

إذن، تقوم الأسوار والجدران العالية بفصل الحل عن الحرم، أو السوق عن المصلى، فصلاً تاماً، أو هي تفصل السماوي عن الحياة الدنيا التي هي «متاع الغرور»، كما جاء في القرآن الكريم، وذلك ابتغاء التفرغ للحياة الآخرة التي هي الحياة الحقيقية، وفقاً لتعاليم الدين. وإنه لفصل نهائي وحاسم ينجزه ارتفاع الأسوار والجدران الشديدة العلو. وهذا يعني أنها تفصل الجد عن الهزل، بل تعزل المقدس عن المدنس. فمع أن الإسلام يحترم العمل بأشكاله كافة، ولا

يحتقر المادة لأنها نعمة من نعميات الله، إلا أنه ليس بغافل عما فحواه أن عالم الشغل، ولاسيما عالم التجارة التي اشتهرت بها دمشق منذ غابر الزمان، لا يخلو من الدنس والغش والاستغلال. ولهذا، فإنك تصير في فسحة القداسة بالضبط حينما تتخطى العتبة الفاصلة بين عالمين متضادين أو متنافرين أشد التنافر، عالم الدنيا وعالم الدين. وعندئذ يصير لزاماً على المرء أن يخلع نعليه لأنهما ينتميان إلى أحط أصناف الدنس والدناءة، وذلك لأنهما يلامسان جلد الأرض أو يكونان تحت القدمين، وهما الشطر السفلي من الإنسان.

❖ ❖ ❖

أما الباحة المسورة والمزوّدة ببعض القباب الصغيرة، وكذلك برواقين معمّدين بأعمدة هيفاء، فان من شأنها أن تتناسب تمام التناسب مع الإحساس بجلال الله وعظمته وكونه أكبر من كل شيء مهما يك كبيراً أو جباراً وموغلاً في الطغيان والعدوان. وهي تنجز هذا التصور بفضل مالها من الرحابة أو الانديا‌ح الذي يؤهلها كي تظل مغمورة بنور الشمس طوال النهار، وبنور القمر والنجوم طوال الليل. وفي تخميني أن الاتساع الرحيب المسوّر بجدران عازلة قد

اتخذته النفس رمزاً يؤشر إلى سعة الداخل أو الباطن النفسي الذي لا سلطة عليه البتة إلا لله وحده، وفقاً لتعاليم الدين. وربما صح الادعاء كذلك بأن الوظيفة الأولى لهذا الاتساع الرحيب هي استضافة الخلاء في جوف الملاء، أو في عقر داره حصراً حتى لكأن توحيد هذين النقيضين المتنافرين اللذين يؤلفان جماع الوجود، ودمجهما في بنية عيانية أو مادية واحدة شديدة التلاحم، هو غاية في ذاته و لأجل ذاته، من وجهة نظر الباطن الشديد الجنوح نحو توحيد المتباينات. ويبدو أن الفرق الكبير الفاصل بين النقائض هو مما يؤرق النفس في كل زمان ومكان. وفي مذهبي أن أقوى تعريف للإنسان هو هذا: انه الكائن الذي يرتعد فرقاً، على نحو صامت أو جهري، حين يكون قد هيمن عليه الإحساس بالعدم (الموت، التصرم، الفضاء المطلق الذي أرهب باسكال). ولهذا كانت المصالحة بين الوجود والعدم هي الموضوعة الأولى، لا في الريازة وحدها، بل في الدين والصوفية قبل كل شيء.

وقد لا أكون من أهل الشطح الأرعن إذا ما زعمت بأن المصالحة بين الأضداد و النقائض، أو إلغاء الفروق بين المتباينات، أو تقليصها إلى أدنى حد ممكن، بحيث تستضيف الحياة الموت في نسيجها حصراً، هو نزعة ترخم على نحو صامت أو هادئ في الراقّة

التأسيسية من راقّات النفس البشرية. وفضلاً عن ذلك، فان هذه النزعة هي واحدة من النزعات الصوفية الكبرى التي يستوعبها الصوفيون تمام الاستيعاب، وذلك لأن الأمن والسلام هما أغلى، بل أعلى غايات النفس النازعة صوب الاطمئنان في مكان فردوسيّ يجهل كل خلخلة واضطراب. وما من طمأنينة ولا من سلام في الدنيا، إلا إذا تعايشت الأضداد والمتباينات وقبل كل منها نقيضه واعترف بحقه في الديمومة والاستتباب. ويلوح لي أن هذا هو ما دعا إلى أن يكون هنالك فراغ شاسع منداح في باحة الجامع الأموي المترامية الأطراف، أي بغية أن يصير هنالك ضرب من ضروب التعايش السلمي بين الوجود والعدم.

ولكنني مع ذلك، أتساءل عما إذا كان الصلح بين الأضداد أمراً ميسوراً بالفعل والواقع، أو عما إذا لم يكن هذا الصلح وهماً أو تجريداً فقط، بل لعله أن يكون رغبة من رغبات النفس وحسب. ويبدو أن النفس تشتهي هذا الصلح حقاً. وذلك لأنها، في أعماقها تشتهي الطمأنينة والأمان، ولكنه قد لا يكون ممكن التحقيق في المجال الخارجي المعيش. فلا ريب في أن الأشياء لا تطيع سوى طباعها، أو كما يقول المتنبي: « تجري الرياح بما لا تشتهي السفن».

وقد يجوز الظن بأن الخلاء أو العدم يستضاف ابتغاء تدجينه أو ترويضه والهيمنة عليه، وقد لا يخفى على اللبيب، أو على من وُهب قوة الحضور، أن هذه الرحابة أو السعة النادرة من شأنها أن تؤشر إلى الفلوات المسرّحة التي جاء منها العرب قبل أن يدشنوا هذا الصرح الخالد العظيم. ويبدو أن الماضي لا يمضي تماماً، بل يظل يفعل فعله بصمت في قاع النفس، أو في نواتها حصراً.

وعلى أي حال، فإن للباحة أبواباً شديدة الضخامة والمهابة، ولاسيما البابين الشرقي والغربي. أما الشرقي فيسمى باب جيرون، وهو مشهور في الشعر منذ الطور الأموي. كما أنه يفضي إلى مقهى النوفرة الذي قد يكون الأقدم بين جميع مقاهي دمشق. وأحسبه يرقى إلى القرن السادس عشر الميلادي. ومما يلوح لي أن ضخامة الأبواب وشدة ارتفاعها يتناسبان تمام التناسب مع انداياح الباحة وترامي أطرافها. ولا مراء في أن هذه الضخامة مقصودة لكي تنتج للزائر، أو للمصلي، شعوراً بالجلال والمهابة وعظمة الحال.

أما واجهة المدخل المفضي إلى المسجد، أو إلى مكان العبادة والصلاة، وهي المزخرفة بصور بعض النباتات التي قد تؤشر إلى الحيوية، أو ربما إلى قدسية الحياة نفسها، فتنم عن أبهة من شأنها

أن تومئ أولاً إلى مجد الله العظيم، ثم إلى أبهة الدولة، أو الحضارة، التي دشنت هذا الصرح الريازي الجليل. فربما جاز القول بأن الشطر العلوي من تلك الواجهة المهيبة يشبه جبيناً مرفوعاً باتجاه الأعلى، ومعتداً بذاته أيما اعتداد، وذلك لكي تكون هاتيك البنية الجزئية الشديدة الشموخ إشارة نصف صريحة إلى كبرياء الله نفسه، وهو صاحب هذا البيت وساكنه الوحيد. ومما يزيد في أبهة تلك الواجهة وفي قدرتها على الإيحاء بالعظمة والعزة والكبرياء أن بابها شديد الضخامة، أو هو واسع ومنتصب كأنه عملاق. ولعل في السداد أن يقال بأن صور النباتات التي تزينها تنطوي على إشارة إلى الصلة التي تربط شعب الصحراء بالمملكة النباتية. ولا غلو إذا ما زعمت بأن الغياب النسبي الكبير لهذه المملكة هو المعضلة الأولى في منطقتنا المصابة بكابوس المحل والتصحر على الدوام.

ولئن ولجت إلى الشطر المخصص للصلاة، أبصرت رحابة شاسعة جداً، مع أنها مشغولة بالأعمدة الكثيرة التي قد تخفف من وطأة حضور الخلاء في مكان العبادة. ولقد شاهدت في الخمسينيات والستينيات شيوخاً من أهل الفقه يجلسون مستندين إلى بعض تلك الأساطين ليلقوا دروساً في الدين والأخلاق على

بعض الطلاب المتحلقين حول كل شيخ، والجالسين بأدب جم، وهم يصغون لما يقوله أولئك الرجال الأفاضل. وكثيراً ما جلست معهم واستمعت للدروس التي يتلقون وانتفعت بها.

ومما هو جد ناصع أن ثمة فرقاً كبيراً بين العمود الذي في الجامع الأموي والعمود الذي في قصر الحمراء النفيس. فالعمود الأول هو من فصيلة العمود الكورنثي حصراً، وذلك لأنه مزخرف الرأس بأوراق الشجر. ثم إنه ليس بالطويل ولا بالقصير، كما أنه ليس بالثخين ولا بالنحيل. أما العمود في قصر الحمراء فهو نحيل وقصير في آن واحد، مع أنه يحمل عبئاً باهظاً جداً. وذلك يعني أنه مبني وفقاً لهذا المبدأ النبيل: إن على الهيف أن يتحمل الجلف، أو على الروح الذي هو اللطف أن يتحمل المادة التي هي الغلظة والثقل وشناعة الحال. وبفضل هذه السمة، وكذلك بفضل ما يتمتع به من رشاقة وروعة، يصير قصر الحمراء أشبه بقصيدة غزلية ذات طابع أثيري أو قيثاري مرهف وشفاف.

وربما حالفني السداد إذا ما زعمت بأن عمود كل أمة من الأمم هو المؤشر الأكبر لمحتويات روحها، أو لمضمون شخصيتها العامة. وفي تقديري أن نمط العمود القائم في الحمراء هو من ابتكار العرب،

وذلك بخلاف العمود القائم في الجامع الأموي. ولئن صح هذا الزعم، فإن عمود الحمراء القصير النحيل ينطوي على مكنون فحواه أن رقة الوجدان هي الصفة الأولى للشخصية العربية في الطور الإسلامي. وبما أن الغزل العذري هو التجلي الأول لرقة الوجدان العربي، فإن في الميسور الزعم بأن ثمة قرابة بين قصر الحمراء وبين الشعر العربي، ولاسيما الموشحات وغزليات ابن زيدون. وربما جاز الذهاب إلى أن هنالك صلة عميقة بين العمارة وبين الشعر بوجه عام.

ولعل أبرز ما يلفت انتباهك في هذا الموضع الجليل، أقصد في المصلى، أو في الشطر المخصص للصلاة، هو أن النوافذ المطلة على الخارج مرفوعة إلى مادون السقف بقليل، وذلك لكي تسمح للكثير من نور الشمس بالولوج إلى داخل المكان. ومع هذا، فإن قسم الصلاة يسوده جو غبشيّ لولا إنارته بالكهرباء في الزمن الحديث. ثم إن هنالك غاية أُخرى من رفع النوافذ إلى الأعلى، وهي أن لا يطل البصر منها على الخارج فينشغل به عن الصلاة، أو عن الاتصال بالله. وهذا يعني أن الروح أثناء العبادة يجب عليه أن ينقطع عن الدنيا تمام الانقطاع، وأن ينصب اهتمامه كله على البلوغ إلى الأعالي، أو إلى العرش الذي يستوي عليه الرحمن نفسه.

وبذلك يتبدى أن كل معمار لا نفعي له مضمرات صامتة، منها الاستنكاف عن مشايعة المادة والدنيا ابتغاء البلوغ إلى ما يسمو عليهما، ومنها أن الصلاة فعل داخلي غايته السمو والتعالي فوق الدنيا، أو تزكية النفس وتنظيفها من أدرانها ثم الرضوخ أمام الله وعزته المهيبة و الاستسلام لحضرته الجليلة وإرادتها الحاسمة. ولهذا، لا يجوز دمج الداخل بالخارج، أو بعالم التجربة الإجرائية المادية أو اليومية. وقد لا يخفى على النبيه أن الذهن يظن بالنفس الظنون، وذلك لأن كبرى سجاياها تتخلص في أن لها نكوصاً إلى عالم المادة، أو شوقاً إلى الاتصال به وحيازته والهيمنة عليه، وذلك بوصفه تجسيداً للقوة التي تعبدها النفس وتحن إلى اقتنائها على الدوام. فالنفس ما عبدت غير القوة وما سعت إلا في سبيل حيازتها والانتفاع بسلطانها. وهذا النكوص باتجاه المادة هو في الوقت نفسه نكوص عن الله، أو رجوع من المقدس إلى المدنس.

❖ ❖ ❖

أما مآذنه الثلاث الفارهة الباذخة فقد توحي للمرء بأنها جهد يبذله الروح البشري ابتغاء البلوغ إلى السماء، أو إلى عنانها على الأقل، أي من أجل إنجاز فكرة السمو أو العلو وتحقيقها في الكون

العياني الملموس، بل قل هي برسم الارتفاع فوق المادة و المال وكل ما يترسب في الأسفل أو على الأرض. وهذا هو المبدأ الذي بني عليه برج بابل، وهو ما يسعك أن ترى فيه مفخرة من مفاخر الشرق، أو انجازاً من إنجازاته النادرة.

ولعل في الميسور أن أزعم أن قبة الجامع الأموي المبنية فوق دائرة مضلعة، هي مثل كل قبة أخرى رمز للكون أو لنصفه المرئي، مادامت على هيئة نصف كرة. ويبدو لي أن الجامع نفسه يطمح إلى تجسيد الكون حصراً، وذلك لأن الكون بأسرة إشارة تردنا إلى الله، أو مجلى تتجلى فيه إرادة الله العلي القدير. والقبة مستديرة أو كروية، والاستدارة هي السمة الأولى للكون، وكذلك لكل كوكب أو نجم يعوم في هذا الفضاء اللامتناهي. أليس التكور الذي تتصف به جميع الإجرام السماوية ظاهرة تدعو إلى التأمل والتفكر، أو إلى التفطن للسر الراخم في جوف كل شيء من أشياء هذا الكون العجيب؟ وقد يجوز الذهاب إلى أن هذا التآزر بين عناصر الجامع ومكوناته وتفاصيله، أعني الجدران والفراغ الشاسع المنداح في داخل البناء نفسه، ثم المآذن الشاهقة السامقة، وكذلك القبة المكورة، إن هذا التآزر أو الاندغام هو ما أنتج الأبهة والرفعة التي يتصف بها الإنجاز

الأموي الباهر المهيب، الذي أراه آية على أصالة دمشق وعظمة شخصيتها وقوة حضارتها وحضورها في زمن العالم أو في فضاء التاريخ. فهو إشارة داله على أن الإنسان لا يبلغ أوج قيمته أو برهة مجده وكرامته في ممارسة التجارة واقتناء الأموال واستهلاك البضائع، بل في الدين والفن والمعرفة والجهد اللانفعي، وهو الذي يسعك أن تسميه باسم الفن المتدين أو الدين المتفنن، أو قل وحدة النسك والجمال. وهذه حقيقة أدركتها على نحو عميق كل حضارة من الحضارات الغابرة، ولاسيما الحضارة الفرعونية والبابلية والهندية بوجه خاص.

لقد بحثت في الجامع الأموي، بل أسرفت في البحث عن أي صنف من أصناف الثلب، أو عن أية منقصة من المناقص الشائنة، فلم أجد أيما شيء من هذا القبيل، اللهم إلا أن تكون قبته بحاجة إلى تحسين أو تجميل، وقد يخالفني السداد إذا ما اعتقدت بأن فن الريازة العربية قد بلغ رتبة كماله حين أنجز قصر الحمراء والجامع الأموي النفيس الذي أحسبه تجسيداً عيانياً لوحدة الجلال والجمال واندغامهما في إنجاز مرصوص يستعصى على التفكك و الانشطار.

وفي زعمي أن كل إنجاز فني عظيم لا بدله من أن يكون قائماً على مبدأ الازدواج، أو تآزر المتباينات وتواؤمها في وحدة عليا متجانسة شاملة.

فحتى زجاجه ذو الألوان الفسيفسائية، التي تبدو شيئاً يخص الأطفال للوهلة الأولى، هو في الحقيقة ذو وظيفة نفسية ليست طفيفة الشأن والمقدار. وتتلخص هذه الوظيفة بأنه يخلق، بتألق ألوانه وتباينها، نوعاً من الابتهاج العذب في شعور الزائرين. ولقد رأيت جامع الزيتونة في تونس، وكذلك جامع ابن نافع في القيروان، وهما إنجازان فنيان عظيمان حقاً، ولكن أيا منهما لا يعادل مسجد بني أمية بتاتاً.

حينما جاء المأمون إلى دمشق وشاهد الجامع الأموي، فقد راح يتفطن للمزايا التي جعلته مدهشاً إلى هذا الحد الرائع البديع. فقرر أنه «بُني على غير مثال» وما بني على غير مثال هو إنجاز فاخر نفيس. وعندي أن كل ما له هذه السمة يأتي من أصول الكينونة أو من ينبوع الينابيع حصراً. و «الأصول كلها غيب»، وفقاً لرأي ابن عربي. وهذا يعني أنها من مملكة الاسرار التي تصلح للذائقة أكثر مما تصلح للفكر.

إذاً، انبثقت صورة الجامع الأموي من الغيب أو من العمق، وما جاء من ذلك الموضع لابد له من أن يكون آية تنم عن العبقرية وسورة الابتكار، بل حتى عن روح الأسطورة وفحواها . وكثيراً ما لاح لي أنه انبجس من حلم عاشه جيل من أجيال التاريخ، وأنه دليل حاسم على أن الزمان نفسه، أعني الملاء المناقض للخلاء ، قد كان هنا في حقبة من الأحقاب الغابرة، يوم كانت الدنيا لا تزال تتمتع بصباها الغرير . ولولا ذلك لتعذر أن يتم تحقيق هذا المعمار الباذخ الجليل .

ومع أن الأموي قد كان من الرَّصافة والصلادة في منتهاهما، فقد دمره الزلزال الكبير الذي ضرب بلاد الشام وأحدث فيها خراباً مهولاً ، وأباد من الخلق ما لا يحصى ولا يعد، وخاصة في صفد ونابلس وعكا وحيفا ويافا، وذلك سنة (١١٧٣ هـ - ١٧٥٩ م) . ويبدو أن الأرض لم تعرف في أي يوم من الأيام مثل ذلك الزلزال المروع الذي جعل «الجبال تمور، والأرض تغور، والمياه تفور ». ولقد أخذت هذا المقبوس الأخير، بل هذا النبأ كله، من كتاب جيد عنوانه «في رحاب دمشق» نشره محمد دهمان سنة ١٩٨٢ .

وفي مذهبي أن الفن الشرقي ذو طابع ملكي أو ارستقراطي، وذلك لأنه لا يهب لك من فحواه وقواه المستورة إلا على قدرك بالضبط، تماماً كما تفعل الخمرة التي وصفها أحد الشعراء الصوفيين بقوله:

على قدرك الصهباء تعطيك نشوة وليس على قدر السلاف تصيب

ولذا قد يجوز الزعم بأن الناس ليسوا سواسية كأسنان المشط حين يكونون في حضرة الفن الشرقي، وأن المرء يحصل من مكنون الإنجاز الفني بحسب ما يدخره ذهنه من قدرة على التفطن والحدس والاستبصار. ولما كان الأمر كذلك، فانه يحصل على ما يحصل عليه لأنه يستحقه، وذلك وفقاً لهذه الآية الكريمة: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى». وإنها لعملية فتح تتم في ممالك الصور، أو في فسحة الفحوى، لا من أجل المتعة وحسب، بل من أجل تزكية النفس وتطهيرها من أدناسها في المآل الأخير. وهذا يعني أن النفس تربي نفسها، بل تعيد صياغة بنيتها أو كيفية هويتها عبر الدين والفن، أو عبر زواج التقوى والجمال الذي أراه ذروة الخير كله.

وههنا لابد لي من أن أشير إلى أن جملة من عظماء الرجال قد دفنوا إلى جوار الجامع الأموي، وهم معاوية، ونور الدين محمود،

وصلاح الدين الأيوبي، وأخوه الملك العادل، وكذلك الظاهر بيبرس، الذي انتصر على المغول عدة مرات.

لعل في ميسور المرء أن يذهب إلى أن دمشق الموروثة، أعني القديمة، كلها متحف، وتنتمي بأسرها إلى التاريخ، أو إلى الأزمنة الأصلية التي آلت إلى الزوال بعدما استهلكتها الأجيال المتعاقبة. بيد أنه ما من انجاز آخر فيها يملك أن يبذ الجامع الأموي أو يضاهيه بتاتاً. فجامع التكية السليمانية، مثلاً لا يتمتع بهذا البذخ أو بهذه الفراهة والاتساع. ووفرة قبابه هي تقليد تركي يحاول أن يضفي على البناء شيئاً من الرونق، وكذلك شيئاً من العمق، لما تتمتع به القبة، أو التكور والاستدارة، من قدرة على تجسيد صورة الكون، أو على استحضار معنى السر والإيحاء به على نحو لا شعوري صامت.

ولكن هذا الجامع الذي بني سنة (٩٦٧هـ - ١٥٥٩م)، على يد مهندس تركي فنان اسمه سنان، وهو من بنى جامع السليمانية الكثير القباب في اسطنبول، إن هذا الجامع شبيه ببيت من البيوت التي نسميها البيوت العربية، والتي أحسبها بابلية الأصل، وذلك لأنه يضم باحته أو فراغه في جوفه، أو في داخله، بل في وسطه ثم يوزع

بقية أجزاء المبنى حول هذا الفراغ الجواني الذي لا يتمتع بالاندياح المترامي الأطراف، وهو الصفة الأولى لباحة الجامع الأموي الجليل النفيس. ولكن باحة التكية تظل مغمورة بأشعة الشمس طوال النهار، وبأشعة الكواكب طوال الليل، أي مفتوحة على الفضاء الكوني اللامحدود.

وفي حسباني أن أروع جزء من أجزاء التكية هو طرفها الشرقي حيث تطفو على السطح قبة بديعة منبسطة بعض الشيء وترتفع فوقها، أو إلى جوارها، مئذنتان لطيفتان رشيقتان كأنما هما حارسان لها يحرسانها من اليمين ومن الشمال. وأني لأرى هذه القبة أجمل من قبة الجامع الأموي بشوط مديد. فلقد رأيت الكثير من القباب ولم أشاهد أجمل من قبة التكية إلا عدداً طفيفاً وحسب، ولاسيما قبة جامع أيا صوفيا التي هي نموذج بديع لفن القبة بوجه عام. فباسترخائها تجمع بين صورة التكور وصورة الانبساط في بنية واحدة، وربما كان هذا الجمع أو التوليف بين صورتين متباينتين هو سر جمالها الأخاذ، الذي لا يخفى على أحد.

وتحت تلك القبة ثمة رواق معّمد بأعمدة نحيله بعض الشيء، فلا تعوزها سمة الرشاقة ولا سمة الهيف المدمث الرقيق، ومما يزيد المكان عذوبة وروعة تلك البحيرة الحية المتفورة بالماء الزلال، أكبر رموز الحياة المرئية، والتي تسبح فيها طيور البط المسالمة وهي تنعم بالدعة والطمأنينة وهدأه البال، الأمر الذي من شأنه أن يعزز الشعور بالأمن والسلام. ومن الأهمية أن أشير إلى أن هذا المكان قد كان يعيش فيه أناس لم يستطيعوا أن يتكيفوا مع الأسواق والأموال وعالم الكدح اليومي أو لعنة الكفاح من أجل القوت، أو من أجل الثراء، فآثروا الزهد في الدنيا على هذا الصراع المتوتر المقيت.

❖ ❖ ❖

أما قصر العظم فهو انجاز جد بعيد عن الصورة العربية، أو البابلية، للريازة والإنشاء المعماري و لاسيما الدينية منها. ويبدو أن تصميمه يتوافق مع الطراز التركي حصراً، إن لم يكن متوافقاً مع الطراز البيزنطي. والفراغ الذي يحتويه في عقره ليس سوى مساحة

ضيقة جداً إذا ما قورنت بباحة الجامع الأموي العملاقة. وفضلاً عن ذلك، فإن قاعاته أو أبنيته ليست شاهقة بتاتاً. وبسبب افتقاره إلى الارتفاع والاتساع، فإنه لا يمنح زائره أيما انطباع مؤداه أنه في حضرة قصر فاخر منيف، أو شديد القدرة على الإيحاء بالأبهة والعظمة. ولئن صح قول المتنبي بأن العزائم تأتي على قدر أهلها، فإن قصر العظم مقدود على قدر هذه المدينة في القرن الثامن عشر الميلادي، يوم بلغ انحطاط العالم العربي كله دركه الأسفل تماماً.

ومما هو معلوم أن الباشا أسعد العظم قد بنى ذلك البناء في سنة (١٧٤٩)، أي بعد سنة واحدة فقط من الهزيمة التي مني بها في برالياس القريبة من بلدة شتورا، على يد الأمير اللبناني ملحم الشهابي، الذي انتزع سهل البقاع من باشا دمشق التركي الأصل، إثر تلك الهزيمة الحاسمة، وذلك وفقاً لما سرده المؤرخ حيدر الشهابي في تاريخه الذي يحمل هذا العنوان : «لبنان في عهد الشهابيين»، وحيدر هذا هو ابن أخ للأمير ملحم بالضبط.

وربما جاز الظن بأن خسران ذلك السهل الشديد الخصوبة، والذي حبته الطبيعة بمياه غزيرة جداً، قد حرم الباشا من مورد مالي ضخم، فجاء البناء محروماً من الأبهة والفخامة، أو من

الضخامة التي تحتاج إلى الكثير من الأموال الطائلة ابتغاء جعلها أمراً ممكن الوجود. وقلما يملك أي معمار أن يكون عظيماً أو جليلاً وقوراً من دون هذه السمة الصانعة للمزية، في الغالب الأعم.

أما مكتب عنبر، وهو الذي لم أزره طوال حياتي سوى مرة واحدة فقط، والذي أحسبه معماراً حديثاً، أو من منجزات القرن العشرين، فيتأسس على مبدأ الارتفاع والاتساع إلى حد من الحدود المقبولة، ولهذا فإنه صورة لا غبار عليها، ومن شأنها أن تنعش النفس أيما إنعاش. وما يزيده قوة ما يحتوي عليه من نباتات حية وجميلة جداً. وفضلاً عن ذلك، فإنه يترك في الذاكرة أثراً عميقاً لا تمحوه يد النسيان بسرعة أو بسهولة. فريما شعر المرء بأن أجزاءه المعمورة قد بنيت وفقاً لمبدأ الرشاقة الناجية من البلادة والغلظة، وبذلك فإنها تبدو وكأنها تنبثق من الأرض انبثاقاً حراً لا يعيقه شيء.

❖ ❖ ❖

ولكن ما هو جد مؤسف أن المتحف الوطني في دمشق لا يحتوي على الكثير من النفائس النادرة أو العظيمة. وفي الحق أنه لاتجوز

موازنته بمتحف اللوفر في باريس، ولا بمتحف برلين أو بالمتحف البريطاني في لندن. إن بلادنا هي بلاد الآثار، ومع ذلك فإن متاحفنا تكاد أن تكون فارغة من الآثار ذات الشأن والمقدار. وكثيراً ما طرحت على نفسي هذا السؤال: لماذا كانت آثارنا في بلاد الغربيين وليست في بلادنا؟ فمسلة إحدى ملكات مصر (ربما كليوباترة) سرقها نابليون وأخذها معه إلى فرنسا. وقد رأيتها بأم عيني تزين ساحة كنكورد (الوئام) في باريس.

إن من شاهد اللوفر ورأى الكثير من تفاصيله، سوف لن يرضى عن متحف دمشق بتاتاً. فهو يكاد أن يكون فقيراً إلى التحف النفيسة البديعة التي تستحق سمة الإتجاف عن جدارة فعلية. فلعل في ميسور المرء أن يؤكد ما فحواه أن سوريا كلها متحف، وذلك نظراً لكونها مهداً لحضارات موغلة في القدم. ولكن أين آثارها؟ وإلى متى سوف نظل منهوبين، يا ترى؟ ففي الحق أن معظم الآثار النفيسة في المتحف البريطاني تعود إلى أصول شرقية، ولاسيما إلى مصر والعراق والهند. ولا ريب في أنها قد نهبت علناً أو سرقت خلسة على طريقة اللصوص. ولا عجب في ذلك، فالحضارة الحديثة يؤسسها مبدأ النهب الذي لا يختلف كثيراً ولا قليلاً عما تفعله القبائل البدوية حين تمارس الغزو والسلب.

❖ ❖ ❖

يوم قرأت بعضاً من مؤلفات الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي (٥٦٠ – ٦٣٨هـ ، ١١٦٥ – ١٢٤٠ م)، ولاسيما «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم»، فقد شعرت بأنه يمثل النفس البشرية وهي تبذل قصارى جهدها كي تتآلف مع اللامعقول، أو كي تدجنه ليصير التعايش معه أمراً ميسوراً إلى حد من الحدود. فمما يلوح لي أن الرجل محاولة كبيرة بذلها الشطر الغربي من الشرق ابتغاء الوساطة بين المعقول واللامعقول، أي لإلغاء الفرق بين هذين الشيئين أو الجوهرين المتباينين أشد التباين. وهذا هو صلح الأضداد الذي تهتم به الصوفية أيما اهتمام.

وأعجبت بالرجل، مع أنني أميل إلى العقلانية مني إلى ما يقابلها في الجهة الأخرى. ولكنني كنت أشعر بالحاجة إلى مرجع مركزي يتجاوز هذا العصر المادي المنهك. ولم أعجب به لأنه يقول بوحدة الوجود التي لا تروقني بتاتاً، ولا لأنه قد نسج مذهباً يحاول أن يتواءم مع جميع مستويات البشر وأذواقهم ومناهج تفكيرهم، وذلك وفقا لمبدأ توحيد المتباينات. بل أعجبت به لأنه صاحب نزعة

إنسانية أصلية مبنية على مبدأ المحبة والإخاء البشري الذي أرآه السجية الأولى بين مجمل سجايا الروح. يقول:

أديـن بـدين الحـب أنـي توجهـت ركائبه، فالحب ديني وايماني

ولعل هذا المبدأ المنبثق أصلاً من صميم الديانة المسيحية النبيلة، أن يكون الأقدر على تجاوز جلافة الحياة وجهامتها وبذائها الصفيق. وبذلك صار الشيخ المؤسس الأول للمذهب الإنساني في تاريخ الفكر العالمي كله، فهو أسبق من الإنسانيين الإيطاليين، فسينو وبراندولا، ومن إرازم، الإنساني الهولندي الذي رأى الإنسان بوصفه «تاج الوجود»، تماماً كما رآه ابن عربي من قبل. فلقد ولد هؤلاء الأوربيون الثلاثة في القرن الخامس عشر، أي بعد ولادة الشيخ بثلاثمائة سنة.

أضف إلى هذا أنه جعل الإنسان هوية مستورة ومقيمة في الباطن السحيق المحجوب عن أنظار الآخرين وأذهانهم، حتى لا يملك أن يسبرها أحد إلا «أهل الله» وحدهم، على حد قوله. وحين تبنى مقولة الكشف، والكشف هو المجيء من خلد قصي، أو من نواة الروح بالضبط، فإنه قد استتبع الفهم من الزكانة والحدس والفطنة، بدلاً

من التذهن الذي لا بد له من الارتطام بأسوار الأسرار والتوقف عندها. فلا غلو إذا أكدت على أنه رائد كبير من رواد السر وواحد من حملة الشمول النادرين في تاريخ العالم بأسره.

وفضلاً عن ذلك، فقد أبدى اهتماماً كبيراً بالخيال، كمفهوم، عدا عن كونه هو نفسه صاحب خيال مجنح، بل لقد كان أول من أهتم بنظرية الخيال بين جميع المفكرين في التاريخ البشري بأسره. وإذا ما أضفت إلى هذا كله أن الرجل يتقن اللغة العربية، أو فقهها وأسلوب اشتقاقها، وأنه يفكر على طرائق الفلاسفة في بعض الأحيان، فإنك سوف ترضى بكونه رجلاً استثنائياً، لا في تراث اللغة العربية وحده، بل في تراث الإنسانية بوجه الإجمال.

ونظراً لشدة إعجابي بالرجل، أو بجوانبه الإيجابية التي أستطيع أن أميزها عن جوانبه السلبية، فقد أسرفت في زيارة ضريحه والتردد على جامعه في حي الصالحية، وهو الذي بناه العثمانيون في القرن السادس عشر الميلادي بعدما احتلوا سوريا بقليل. وفي الحق أن اهتمامي بالرجل قد جاء نتيجة لرغبتي في تجاوز المادية نحو مذهب روحي يهدف إلى تجاوز هذه الدنيا المضعضعة باتجاه مرجع

يشكل قيمة عليا مؤصلة، أو صوب مثل أعلى يستحق أن يعيش المرء من أجله. فمنذ أواخر الستينيات وأنا مهموم بكيفية الالتحام بالقيمة الثابتة التي ترسخ مسافة لا تعبر بين المقدس والمدنس، أو بين الأخلاقي واللاأخلاقي. وعلى أيه حال، أراني أعتقد بأنه شرف عظيم لدمشق أن يختارها هذا الرجل الكبير ملجأ له بعدما طوّف في الآفاق حتى صار شبيهاً بابن بطوطة. ومن جهة أخرى، فإن ابن عربي القادم من الأندلس لم يصطف دمشق لتكون مستقره النهائي إلا لأنها واحدة من أجمل مدن الدنيا وأعظمها في الأطوار الإسلامية كلها. وللحق أن هذه المدينة الثرية قد أكرمت وفادته واحترمته أيما احترام. فقد جعل له ابن الزكي، وهو واحد من أغنياء دمشق، مرتباً شهرياً أو سنوياً ظل يتقاضاه حتى وافته منيته ودفن في سفح قاسيون.

ولكن الرجل اليوم مغّفل لا يكاد يهتم بتراثه أحد من الناس، اللهم إلا قلة صغيرة من أتباع مذهبه كانت لا تزال موجودة في دمشق حتى عهد قريب، في حدود علمي. والشطر المقتطع من مسجده والمخصص لضريحه هو جزء صغير جداً، ولا يزّين جدرانه أي فن

من شأنه أن يوحي للزائر بأنه في حضرة اللامفهوم أو اللغز أو السر الذي لا يسبره إلا أهل الله. فقد أتيح لي أن أشاهد في قونيا ضريح جلال الدين الرومي، الذي هو واحد من تلاميذ ابن عربي ومريديه (شهد الرومي جنازة الشيخ الأكبر في دمشق.) يقيناً، ان ذلك المكان تحفة شرقية إسلامية نادرة. وفي داخل المبنى ثمة موضع مكرس لمكتبة صغيرة تضم جميع مؤلفات الرومي الشعرية والنثرية، مخطوطة باليد على نحو بديع. والمكان اليوم قبلة للزائرين والسائحين من أتراك وغربيين يعنون بتصويره واستيعاب تفاصيله باهتمام شديد. ولكنني اشتهيت أن أرى عربياً واحداً يوم زرته سنة (١٩٨٢) مع أن تركيا كانت تعج بالعرب في ذلك الحين.

لكم أتمنى أن تهتم جهة من الجهات الرسمية بجامع الشيخ الأكبر، فتوسّعه وتخصص شطراً منه ليكون بمثابة مكتبة تحتوي على جميع مؤلفاته المخطوطة والمطبوعة وأن تيسرها لأيدي الدارسين وطلاب المعرفة، سواء أكانوا من العرب، أم من غير العرب، كما ينبغي التسامح معه لأن عقيدته لا ترضي الجميع، وينبغي أن نقول كما قال التراثيون: «ربه أعلم به».

فمما يحتاج إلى بيان أن ابن عربي قد عمل بجديه نادرة، مع سواه من الصوفيين، كي يصير الإلهام أو الحدس مصدراً من مصادر المعرفة، أو منهجاً من مناهج الاتصال بالحقيقة، أو بالسر واللامفهوم، بل حتى بالماوراء الذي يتعذر أن يتصل به العقل حتى ولو بذل قصارى جهده، أو بلغ أقصى درجات العنت. ولهذا، فان ابن عربي يستحق الكثير من الاحترام بسبب هذا السعي الطافح بالزخم العارم الغزير. ويبدو لي أن أتباعه قد سموه الشيخ الأكبر ليتجاوزوا به الفلاسفة الذين سموا ابن سينا الشيخ الرئيس. فمن المعلوم أن الصوفيين يتهمون الفلسفة بأن شوطها قصير، ولهذا فإنها لا تملك أن تطال الحقيقة. أما الفلاسفة فيتهمون الصوفيين بأنهم أهل غيبوبة وإغماء يعيشون في سبات العقل وخدر الأوهام. فالمعركة كانت على أشدها بين الطرفين المتضادين على نحو لا يخفى حتى على الأطفال.

وعلى أيه حال فان جامعه الراهن لا يخلو من روعة أو جمال، وأروع ما فيه مئذنته الدائرية البديعة الشبيهة بأسطوانة. وكذلك قبته الكروية الجميلة الشكل، والتي تزيدها روعة وفتوناً جملة من

النوافذ المفتوحة من جهتها السفلية، وذلك لكي تسمح لنور الشمس بإنارة الضريح طوال النهار. والقبة تسامت ذلك القبر تماماً، أو قل أنها فوقه مباشرة. فلكم يروقني أن أنظر إلى هذه القبة وهذه المئذنة. وكذلك إلى قبة جامع التكية الآنفة الذكر. وإلى جوار قبر الشيخ ثمة قبر الأمير عبد القادر الجزائري الذي كان واحداً من أتباع مذهب ابن عربي في القرن التاسع الميلادي، وكذلك ضريح كل من ولديه، عماد الدين وسعد الدين.

ولكن باحة الجامع المخصصة للتصالح مع الفراغ، على عادة الجوامع الإسلامية القديمة، لا تتمتع بالاتساع الكافي لإضفاء الأبهة على المكان، أما الشطر المخصص لإقامة الصلوات، فهو على العكس من ذلك واسع جداً إلى الحد الذي لا تخطؤه العين، وبهذا الاتساع فان المسجد يعوض عن ضيق الباحة المجاورة للمصلى من جهته الشمالية.

وإلى الشرق من جامع الشيخ الأكبر ثمة جامع لشيخ آخر هو من أتباع ابن عربي. إنه الشيخ عبد الغني النابلسي المتوفى سنة (١١٤٣هـ - ١٧٣١م) والذي كان شاعراً ورحالة وواحداً من كبار

المتصوفين في عصره. ومن المعلوم أنه شرح «فصوص الحكم» وأجاد في شرحه لها . ولكن جامعه الراهن لا يضاهي جامع محي الدين، لأنه أصغر حجماً وأقل جمالا . ومئذنته لها شكل متوازي المستطيلات، وهذا شكل لا يتمتع بالجمال الذي تتمتع به الاستدارة، أو التكور.

❖ ❖ ❖

ومما يتناسب مع هذا السياق أن أذكر خبراً عن ابتداء بناء الصالحية التي يقع فيها هذان الجامعان، فضلاً عن آثار أخرى، ففي سنة (٥٥١ هـ - ١١٥٦ م) جاء قوم من ضيعة في جبل نابلس اسمها جمّاعيل وعلى رأسهم شيخ اسمه أحمد بن قدامة المقدسي، وذلك هرباً من اضطهاد الإفرنج للفلسطينيين في تلك الأيام، وسكنوا في جامع اسمه جامع أبي صالح، وموقعه بين باب توما والباب الشرقي، ولكن خارج السور. وبعد مدة من الزمن رحلوا إلى سفح قاسيون وبنوا بيوتاً وسكنوا فيها . فسمي المكان باسم الصالحية، وذلك نسبة إلى المسجد المذكور. واستطاع أبو عمر وهو ابن الشيخ

أحمد، أن يبني المدرسة العمرية في الصالحية. ولقد كانت هذه المدرسة واحدة من أكبر المدارس في دمشق . وهي تقع بين جامع محي الدين وجامع النابلسي. ومما هو معلوم أن أبا شامة المقدسي مؤلف «كتاب الروضتين»، ينتسب إلى هذه العائلة الكريمة، كما ينتسب إليها عدد آخر من أهل المعرفة والعلم .

ومن أبرز أخبار الصالحية أنها كانت المكان الوحيد لصناعة الورق في جميع بلاد الشام، كما يقول ابن طولون في «تاريخ الصالحية» ويشير هذا المؤرخ نفسه إلى أنها تعرضت سنة (٦٩٩ هـ ـ ١٣٠٠ م) لغزوة مهولة قام بها المغول الذين نهبوها وسبوا من أهلها خلقاً كثيراً.

❖ ❖ ❖

في دمشق ثمة الكثير من المعالم الأثرية القديمة الجديرة بالذكر في هذا المسرد، مع أنه عمل وجيز سريع. ولا ريب في أن مبنى المكتبة الظاهرية، حيث يرقد الظاهر بيبرس، البطل الذي انتصر على المغول وعلى الإفرنج في عدة حروب، هو واحد من هذه المعالم

الشديدة الأهمية، والتي تسهم في تحديد هوية العاصمة السورية.
كما أن بناء المكتبة العادلية، حيث يرقد الملك العادل، هو معلم آخر من معالم دمشق. وهناك جامع نور الدين محمود، حيث يرقد ذلك السلطان الوطني الكبير. ثم إن بوسعك أن تضيف خان أسعد باشا المبني بأسلوب فني يجعل من السقف دوائر متجاورة ومتداخلة في آن معاً، ويبدو أن ثمة صلة خاصة بين الدائرة وبين الباطن النفسي الصامت العميق. فالدائرة رمز الكمال، وإشارة من شأنها أن تؤشر إلى الرغبة في النضج أو حتى في الشفاء من جميع الاضطرابات النفسية والتوترات العصبية المخلخلة للعقل.

كما أن لدمشق سوراً مازالت بقاياه ماثله للعيان اليوم. وللسور أبواب كثيرة، لعل أبرزها الآن باب توما والباب الشرقي. وتوما (وهذه كلمة سريانية تعني التوأم) هو أحد الحواريين الاثني عشر الذين عايشوا السيد المسيح وأخذوا الذين منه على نحو مباشر. ولا يزال هذان البابان في حالة جيدة حتى اليوم. ومما هو هام أن يلاحظ المرء ما فحواه أن لهما هيئة القوس الذي هو انحناء يرمز إلى الحنو أو إلى الحنان الأمومي العطوف. ومما هو معلوم أن القوس وكذلك

القبة هما انجازان أنجزتهما بابل التي كانت تحرم على الشرطي أن يمنع أسيراً من رؤية الشمس. وحين يعرف المرء هذه الحقيقة، فانه يدرك على الفور لماذا كان القوس المعماري الحنون، وكذلك القبة التي هي من الفصيلة القوسية، شيئاً من إنتاج العبقرية البابلية التي لولاها لما كان العالم على ما هو عليه الآن.

والباب الشرقي هو ثلاثة أبواب متلاصقة، وأوسعها الأوسط. وكل منها له شكل قوس، ولا أدري لماذا بنيت مئذنة فوق هذا الباب الجميل، مع أنه لا وجود لأي مسجد بجواره. وإلى الجنوب الشرقي منه ثمة مسجد صغير يسمى مسجد كعب بن أبي، الصحابي المشهور.

وقد بني هذا المسجد سنة (٥٠٠هـ - ١١٠٧م) ومع أنه صغير جداً، فإن له قبتين متجاورتين تماماً وكل منهما مبنية على جدار منخفض ومضلع وشبه دائري. كما أن له مئذنة صغيرة جداً، لا أذكر مئذنة أُخرى أصغر منها.

ولكن إلى الشمال من الباب الشرقي، وداخل السور هذه المرة أو بين الباب الشرقي وباب توما، ثمة كنيسة قديمة جداً لم أشاهد لها

مثيلاً، وذلك لأنها تحت الأرض، أو هي شبيهة بالكهف وينزل إليها المرء على درج قد يبلغ العشرين درجة أو يزيد، وتسمى كنيسة (حنانيا). وحنانيا هو واحد من حواريي السيد المسيح الاثنين والسبعين. وكان أول أسقف مسيحي لمدينة دمشق. وقد تم تعميد بولس الرسول على يديه، وذلك بعد حادثة مشهورة جرت لبولس في عرطوز، ويقال في داريا، وهما ضاحيتان من ضواحي دمشق، الأولى إلى الغرب والثانية إلى الجنوب الغربي.

كان حنانيا يبشر بالمسيحية في دمشق الرومانية، وكانت السلطة قد حرمت هذا الدين المسيحي الناشئ يومئذ. فقبضت عليه ورجمته حتى الموت خارج أسوار المدينة. وقد تحول بيته في دمشق إلى كنيسة في القرن الخامس أو السادس الميلادي. وهو لا يزال كنيسة حتى يوم الناس هذا. وإنها لكنيسة صغيرة جداً، حتى لكأنها تشبه الكهف، أو لكأن الدخول إليها يشبه الولوج في جوف الفراغ، ومع ذلك فإنها إنجاز نفيس ونادر بكل تأكيد. ولكن الحفريات بيّنت أن هذا المكان قد كان معبداً وثنياً يعود إلى القرن الثاني أو الثالث للميلاد.

وإلى الغرب من الباب الشرقي، وعلى مبعدة قد لا تزيد عن بضع مئات من الأمتار، ثمة كنيسة أخرى ذات أهمية بفضل رونقها وحجمها الكبير. إنها الكنيسة (المريمية) التي بنيت منذ زمن قديم، ولكنها هدمت في الفتنه المؤسفة، وأعيد بناؤها سنة (١٨٦٧).

ولدى الدخول إليها يمر الزائر بباحة صغيرة مستطيلة، ثم يعبر رواقاً له أعمدة وأقواس. والرواق يحيط بها من ثلاث جهات، أي هي بغير رواق من الجهة الشرقية. وعند الزاوية الجنوبية الغربية ثمة برج يوحي بالرصانة والجمال معاً، ويزيد ارتفاعه عن ارتفاع الكنيسة بعض الشيء. فهو ينتصب إلى جوارها كأنه حارس صنديد جسور. وله أقواس في وسطه، كما أنه ينتهي من الأعلى بقبة صغيرة. ولا أحسب أنه ينتمي انتماء مباشراً إلى نمط العمارة الشرقية أو البابلية بأي حال من الأحوال.

ويرتفع مبنى الكنيسة زهاء اثني عشر متراً. ويعلو واجهتها الغربية ذلك المثلث الذي يسمونه القوصرة، وهو شكل ريازي تجميلي ينتسب إلى نمط العمارة اليونانية القديمة، ويضفي على المبنى شعوراً بالرشاقة والحسن. أما من الداخل، فالكنيسة واسعة جميلة

قد تمنح المرء شعوراً بالطمأنينة وهدأة البال. وسقفها العالي محمول على أعمدة كورنثية أو إغريقية الطراز. ولكل من الجدارين، الجنوبي والشمالي، سلسلة من النوافذ قريبة من السقف، وأخرى قريبة من الأرضية. وبين السلسلتين، أي في الوسط، ثمة رواق ذو أعمدة صغيرة وأقواس. ومن شأن هذا كله أن يصنع جمالاً وعذوبة في داخل الكنيسة نفسها. وللحق أن المبنى كله بهيج أو حسن الهيئة ومريح للنفس كثيراً، مما قد يؤشر إلى أن العصر الذي بناه متفائل، أو لعله لا يكابد أي شعور بالبؤس أو بالضيق. والأهم من ذلك أن جو المكان كله يليق بروح الديانة المسيحية النبيلة والطافحة بالطهر والمحبة في آن واحد.

ومما يستحق الذكر أن ابن جبير قد أشار في كتاب رحلته إلى هذه الكنيسة التي بنيت لأول مرة في القرن الثاني الميلادي وذلك حينما قال: «وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم، تعرف بكنيسة مريم، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها. وهي حفيلة البناء، تتضمن من التصاوير أمراً عجباً تبهت الأفكار

وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب. وهي بأيدي الروم، ولا اعتراض عليهم فيها».

وإلى الجنوب الغربي من الباب الشرقي هنالك كنيسة ذات هيبة وجلال، اسمها (سيدة النياح)، وقيل (سيدة النجاة)، الواقعة في حي الزيتون. ولدى الولوج إلى حرمها يمر المرء بباحة فسيحة بعض الشيء، وهي ليست مسورة بأي سور مرتفع. واللافت للانتباه لدى رؤية هذه الكنيسة هو أنها محاطة من جهاتها الأربع برواق ذي أعمدة وأقواس من شأنها أن توحي للمرء بالحنو أو بالحنان. وربما ألمع الرواق الذي يحيط بها من كل صوب بأن الكنيسة بمجملها مكنوفة باللطف والتدبير الإلهي.

أما داخلها فهو واسع مهيب، بل لعله أن يكون قادراً على أن يمنح النفس شعوراً بالأبهة أو بالعظمة. ويزيدها بهاء رواقان مبنيان على الجدار الأيمن والجدار الأيسر. وتحت الرواقين هنالك نوافذ تسمح للنور الطبيعي بالولوج إلى داخل الكنيسة، كما أنها تتيح لهذا الداخل أن يقيم حواراً مع الخارج المفتوح.

وإذا ما صرت في جوف الجزء المخصص للصلوات بدهتك كثرة الأعمدة الثخينة والمرتفعة إلى حد غير مألوف في كنائس دمشق وجوامعها. وبما أن تلك الكنيسة قد بنيت سنة (١٨٣٤)، أي في الطور العثماني، فقد جاءت أعمدتها شبيهة بالأعمدة القائمة في الكثير من جوامع تركيا، ولاسيما أعمدة الجامع الأزرق في اسطنبول. فهي طويلة وثخينة إلى حد لا تخطؤه العين. وربما رأى بعض الناس أن العمود الثخين لا يتمتع بالكثير من الجمال والقدرة على الاجتذاب.

ويعلوها برجان صغيران بعض الشيء. والبرج الجنوبي منهما مخصص للساعة، أما الشمالي فهو مخصص للجرس. ومع أنهما ليسا شاهقين فإنهما لا يخلوان من ذوق. وفضلاً عن ذلك، فإن الكنيسة مأهولة بالكثير من الحسن والرونق، ولاسيما في داخلها الجليل.

❖ ❖ ❖

هذه نبذة وجيزة عن بعض الآثار الدمشقية التي تحدرت إلينا عن الأسلاف، أو عن الأزمنة الغابرة الطافحة بالخصوبة والأصالة والقدرة على الابتكار والإبداع الأصيل. ولئن حاول المرء أن يخوض في الدقائق والتفاصيل التي لا نهاية لها، وأن يحيط بجميع المنجزات الصغيرة والكبيرة، فإنه سوف يحتاج إلى مجلد شديد الضخامة لا يقل حجمه عن ألف صفحة أو أكثر. ثم إن هنالك الكثير مما لم أعرض له قط، وذلك خوفاً من الإطالة والإملال. فكل بيت في الأحياء القديمة هو أثر نفيس بالفعل ويستحق التأمل والنظر المتأني والجانح نحو الاستبصار. ولا غلو إذا ما زعمت بأن هذا الشطر القديم من مدينة دمشق هو وجوباً وحكماً متحف قائم بحد ذاته حقاً، ويجب الحفاظ عليه كما يحافظ المرء على مقلة عينه.

وربما حالفني السداد إذا ما زعمت بأن هذه المنجزات المعمارية العريقة الجليلة قد أنجزتها المسغبة الروحية التي تجتاح باطن الإنسان على الدوام، ولكن دون أن تجد لها أيما إشباع قط. وفي مذهبي أن الريازة، قبل أي فن آخر، هي التجلي الأكبر لشخصية الأمة التي تنتجها أو تخصها وحدها. فريازة أمة معينة في زمن معين هي الكاشف الأول لمحتوياتها في ذلك الزمن حصراً. وما هو أهم من

هذا فعلاً أن الريازة، أو منجزاتها الجلى الماثلة للعيان، تحتوي على أسرار النفس ومكنوناتها الصامتة، وذلك لأن تلك المنجزات هي التعبير الخارجي المرئي عن تلك الأسرار والمدخرات النفسية المستورة. كما أن تأمل المنجزات المعمارية الكبرى وتذهنها بواسطة العقل الاستبصاري الفعال هو جهد قد يفضي بنا إلى فهم للنفس ربما عجزت عن توفيره لنا أي منجزات حضارية أخرى، بما في ذلك الشعر و الموسيقى. وما هذا بصدفة قط. فالمنجزات المعمارية شيء أعطي للنظر، أو للعيان البصري والعيان الاستبصاري في آن واحد. وما من ريب في أن العين أقوى الحواس وأشرفها وأعلاها رتبة ومقاماً. كما أن الاستبصار الحدسي المتفطن هو أرقى نشاطات الفهم وأنفس نزعات الروح السابر والنازح صوب الغور العميق الذي لا يقوى على البلوغ إليه سوى الأقوياء.

أن يكون لنا ماضٍ عريق طافح بالمبتكرات العظيمة، ماضٍ نعتد به ونعتز، أو أن نحوز ما يسمح لنا بأن نرفع رؤوسنا، هو أمر من شأنه أن ينعش الذات ويبعث فيها الأمل والرجاء. وربما جاز الزعم بأن هذه الهوية العامة هي موضوع التاريخ كله، أو هي قلبه المؤلف

لأهم ما فيه من العناصر الحية الكبيرة. فلكم هو شيء عظيم أننا ننتمي إلى ماضٍ عمره أكثر من عشرة آلاف سنة، وأن لنا تراثاً أصيلا قديماً يتحدر من عصور الصيد والكهوف وبدايات الزراعة وتدجين الحيوان.

يقيناً، إن منطقتنا هي التي اخترعت الإنسان، أجل أنسنت الوحش الشبيه بالكائن البشري في الطور السابق على التاريخ، واستدرجته رويداً رويداً صوب ماهيته الإنسانية بواسطة الدين والفنون الجميلة العاملة على صقل النفس وتزكيتها وتخليصها من حيوانيتها وشراستها وخشونة ملمسها. أما هذه الحضارة المادية الراهنة الشديدة السعار، فإنها تعمل بالاتجاه المعاكس لاتجاه حضارتنا القديمة بالضبط، وذلك لأنها تعود بالإنسان القهقرى صوب حيوانيته الأولى التي كان عليها قبل بداية التاريخ والحضارات العالية.

ولعمري، إن الغربيين لم يستوعبوا لباب الشرق، أعني ميله إلى العمل في الداخل قبل الخارج، أوفي الذات قبل الموضوع. إن النفس، وليست المادة، هي المركز الذي عليه المدار في الحضارات الشرقية

بأسرها. فلئن كانوا يمثلون الحركة الموارة الدائبة التي لا تهجع ولا تركد، كأنهم البراكين المتفورة بالحمم والنيران، فإن الشرق هادئ صبور وشديد القدرة على ممارسة التأني والتربص والانتظار. وبسبب هذه الصفة الجهنمية التي يتصفون بها فقد أسسوا حضارتهم على القرصنة والإرهاب وابتزاز الشعوب، وذلك بأساليب القراصنة والاعراب والغزاة البدائيين.

وربما تمكنت منطقتنا في المستقبل البعيد من إنجاز ثورة روحية من شأنها أن تستقلب الحياة بأسرها، وأن تجعلها أفضل مما هي عليه الآن بكثير. وربما استطاعت تلك الثورة المرتقبة أن تحرر البشرية كلها من بؤسها الذي صنعته الصناعة المفرطة في نزوعها صوب عبادة المادة وتوثين المال، والتي حررت جسد الإنسان واستعبدت روحه، تماماً على النقيض مما فعل الشرق منذ آلاف السنين. وقد تتمكن تلك الثورة المأمولة من أن تعيد صياغة الإنسان، أو أن تغيره كرة أخرى، مثلما غيرته الثورة الأولى وأعادت صياغته يوم أهلته للدخول إلى رحاب التاريخ.

رابعاً - عرس الوحدة

لم تكن دمشق كثيفة السكان في بداية عهدي بها، فقد جاء في كتاب الجغرافيا الذي كان مقرراً علينا يوم كنت في صف الشهادة الثانوية سنة (١٩٦٠) أن عدد سكانها هو أربعمائة ألف نسمة. ولم تكن مكتظة بالسيارات في تلك الأيام المريحة للنفس. كما أن شوارعها كانت نظيفة جداً، إذ كلفت السلطة بعض العمال برشها بالماء الذي يملأ قربة يحملها عامل ويظل يرش الماء طوال مدة عمله. وكانت صنابير الماء منتشرة في بعض الأماكن، ومنها يحصل عمال التنظيفات على الماء اللازم للرش. وبالبداهة، فإن مدينة ليست مكتظة بالناس ولا بالسيارات، والعمل فيها متوفر جداً، هي بالضرورة مدينة هادئة ومريحة للأعصاب، و العيش فيها رخي، أو هو لا يخلو من رخاء وهناء وهدأه بال.

ألا رحم الله تلك الأيام الجميلة، يوم كنا نقتسم السيجارة الواحدة وسندويشة الفلافل، ويوم كان الجلوس على العشب في

حديقة ما، أو مشاهدة فلم مصري أو أمريكي في إحدى دور العرض السينمائي، وهي الكثيرة في دمشق حتى الآن، أو حتى التسكع في الشوارع والحدائق العامة، متعة قد لا تبذها أية متعة أُخرى.

ولم يكن الناس قد عرفوا أي إحباط بعد، فالاستقلال أو الجلاء الذي حققته سوريا سنة ١٩٤٦ أسس صنفاً من العنفوان في نفوس الناس. ويوم أممت مصر قناة السويس في شهر تموز سنة (١٩٥٦) خرجت دمشق كلها تؤيد وتبارك تلك الخطوة الوطنية المجيدة فكان في ميسور المرء أن يرى الشوارع وهي تمور بالبشر وتفور. وراح الكثيرون يهتفون قائلين: «يا جمال يا عزيز، يا قاهر الإنكليز». أما جمال فهو الرئيس المصري، جمال عبد الناصر الذي اتخذ خطوة التأميم.

ويوم نشب العدوان الثلاثي على مصر في تشرين الأول، سنة (١٩٥٦)، صارت دمشق كلها أشبة بخلية نحل، بل أخذ الناس يتحركون فيها كأنهم أمواج بحر هادر هائج. فالمظاهرات المؤيدة لمصر خلال فترة العدوان تملأ الشوارع، والجيش الشعبي الذي تشكل على الفور قد ضم أعداداً من الشبان والكهول

شديدة الضخامة، فصار مشهد السلاح في أيدي الناس أمراً مألوفاً جداً. وصارت الشعارات الوطنية والقومية تملأ الشوارع وتتردد على الألسنة في كل حين. ووقفت الأحزاب السياسية كلها موقفاً موحداً ضد العدوان والمعتدين. وأكبر الناس موقف بور سعيد الصامدة التي دهمها الإنكليز والفرنسيون. وأكبروا بالدرجة الأولى المقاومة الشعبية التي تصدت للعدوان بدلاً من الجيش المصري النظامي أو الرسمي، الذي انسحب من المدينة لأنه لم يكن متكافئ العدد والعدة مع القوى الثلاث، المعتدية الغاشمة.

❂ ولم أشاهد دمشق تفور وتغلي وهي في حالة غضب أو سخط أو حزن كما شاهدتها في تلك السنة إلا مرة واحدة فقط، وذلك يوم توفي جمال عبد الناصر في شهر أيلول سنة (١٩٧٠). ففي تلك السنة صارت شوارع دمشق أشبه ببركان يتفجر ويثور، فلا يعرف المرء ماذا أصاب الناس، ويبدو أن موته المفاجئ بعد هزيمة حزيران الشنيعة التي تذكر المرء بهزيمة العرب أمام الحملة الصليبية الأولى، قد ترك في الناس شعوراً باليتم، أو بفقدان الوالد المدبر للأمور في ساعة الشدة.

وأعلنت سوريا الحرب على العدو الغاشم أثناء حرب السويس، ولكن الأسطول الأمريكي أخذ يلوح في الأفق من مدينة اللاذقية. وهذا يعني أن سوريا لو خاضت حرباً فقد كان يتحتم أن تقاتل على جبهتين: جبهة الجنوب وجبهة الساحل، وهذا عبء باهظ لا تتحمله قواها الغضة الفتية في ذلك الحين. فالجيش السوري يومئذ حديث النشوء عمره عشر سنوات فقط. ولهذا فقد كان من الحكمة أن الإدارة السورية لم تقدم على أي هجوم، واكتفت بالتأهب للدفاع عن نفسها إذا ما دهمها العدو.

وفي تلك السنة أقامت الحكومة في الطرف الشرقي من ساحة المرجة مركزاً لجمع التبرعات للثورة الجزائرية التي اندلعت قبل ذلك بسنتين. وقد رأيت النساء الدمشقيات ينزعن الأساور والخواتم والأقراط والعقود ويتبرعن بها لإخوانهن الجزائريين الذين قدموا أعداداً كبيرة من الشهداء لكي يطردوا المحتل الغاصب من أرض بلادهم. كما رأيت أعداداً كبيرة من البشر يقدمون بعض المال للغرض نفسه.

أما أنا فكنت طالب مدرسة في تلك الفترة، وقد مررت بمكان التبرع ذات يوم ورأيت الناس يتبرعون بسخاء وحمية، فأخذتني السورة وتبرعت. ولم يكن في جيبي سوى ليرة سورية واحدة، وهي تعادل زهاء مائتين وخمسين ليرة من ليرات اليوم، فتبرعت بها كلها، ولكنني بعد ذلك وجدتني وأنا لا أملك عشرة قروش أدفعها أجرة الباص الذي سوف يقلني إلى البيت، فاضطررت أن أسير على قدمي من ساحة المرجة في منتصف دمشق إلى بيتنا في مخيم اليرموك. وهذه مسافة لا تقل عن خمسة كيلو مترات.

ولعل أهم ما في الأمر يومئذ أن الثقة بالمستقبل كانت تملأ الأفئدة ، وأن الأمل الناجي من الزيف والاصطناع هو وقود النفس في تحركها نحو الأهداف العزيزة المنشودة، ولاسيما الأمل في الوحدة العربية والتحرر من كل قوة أجنبية غاشمة.

ولكن دمشق عاشت عرساً أوعيداً إثر إعلان الوحدة بين سوريا ومصر في الثاني والعشرين من شهر شباط سنة (١٩٥٨)، أي قبل خمسين سنة من الآن. وإنه لعرس أو عيد طويل دام خلال ثلاثة أعوام ونصف العام تقريباً. فصارت تموج بالناس والحركة على نحو

لا أعرف له مثيلاً من قبل، مع فارق واحد وهو أن الناس الآن ليسوا غاضبين، ولا محزونين، وإنما هم مبتهجون أشد الابتهاج. ولقد بدا الأمر للكثيرين وكأن الأمة العربية قد تجدد شبابها، وأن الزمان قد عاد إلى صباه الذي اندثر منذ زمن بعيد.

وصرت ترى أهل الأرياف القادمين إلى المدينة للمشاركة في العرس يرقصون الدبكة في شوارع دمشق ويغنون أغانيهم الريفية المفرحة وذات الطابع الرجولي، أو المعبر عن القوة وإرادة القوة. وصار الشبان من الجنسين يسيرون في الشوارع وهم يغنون أو ينشدون الأناشيد الوطنية، أو يهتفون الهتافات المؤيدة للوحدة العربية والمنددة بجميع المناوئين لها أينما كانوا. كما أن بعضاً من أهل دمشق الأشداء، أو من شبانها حصراً، قد راحوا يلعبون بالسيوف والتروس، وهم يرتدون الملابس الخاصة بمدينة دمشق. كما أنهم كانوا يطلقون أصواتاً تنطوي على مضمون يتوسط بين الغناء والهتاف.

وراحت الخيل تلعب وتتسابق في شوارع دمشق، وذلك أن بعضاً من أهل حي الميدان، وكذلك حي العمارة وحي الشاغور (والشاغور كلمة سريانية معناها الشلال)، كانوا لا يزالون يملكون خيولاً أصيلة

وأعادتا الإقليمين العربيين المتحدين إلى التجزئة من جديد. وعبثاً راح الناس في دمشق وسواها من المدن السورية يناضلون من أجل إعادة ألّلحمه ورأب الصدع، فقد كان أعوان الإمبريالية والصهيونية أقوى من الشعب الأعزل الذي لا حول له ولا طول في زمن تهيمن عليه أسلحة الدمار الشامل.

وانقضى العام الدراسي (١٩٦١-١٩٦٢) دون أن تنتظم الدراسة بالمدارس على امتداد الإقليم السوري كله، وفي جامعة دمشق كذلك، اللهم إلا لماماً وحسب، وذلك لأن التلاميذ والطلاب قد انهمكوا كثيراً في المظاهرات المطالبة بإعادة توحيد البلدين. ولكن تلك الجهود كلها قد بذلت بغير جداء، إذ ظل الانفصال ماضياً في غيه لا يأبه بشيء. وبسبب اضطراب التعليم في الصفوف لمدة طويلة خلال ذلك العام الدراسي، فإن وزارة التربية قد مددت الدراسة لمدة شهر يومئذ. وكذلك فعلت جامعة دمشق أيضاً. ومن البديهي أن يقال بأن تشبث الشعب السوري بالوحدة في تلك السنة هو آية على أصالته ونقاء نزعته الوطنية الصادقة.

ومما يستحق التسجيل في هذه العجالة الموجزة أن العدو الصهيوني قد استغل فرصة الاضطرابات في سوريا وهجم ذات ليلة

يسان، سنة (١٩٦٢) على الجبهة السورية ودار القتال بين الجيش السوري والجيش الصهيوني، وأسفر عن نصر وزر لنا عليهم، وتم طردهم إلى مواقعهم السالفة بعدما تركوا بعض الآليات المحطمة التي جيء بها من الجبهة إلى دمشق لتعرض في ساحة المرجة وليشاهدها القاصي والداني. أما خسائر الجيش السوري فكانت مائة وستين شهيداً، عدا الجرحى. ولم تعرف خسائر العدو بتاتاً، وذلك لأنه يملك قدرة استثنائية على إخلاء أرض المعركة من الإصابات في الأرواح.

وفي النهار التالي لتلك الليلة الحربية، دارت معركة جوية بين الطيران السوري وطيران العدو، وكانت النتيجة أن طيراننا تفوق على خصمه، وأسقط عدة طائرات معادية شاهدها الناس في منطقة الجبهة بأم أعينهم وهي تهوي على الأرض كي تتحول إلى حطام.

❖ ❖ ❖

في مذهبي أن الإمبريالية الجديدة كلها لؤم وقسوة. فقد استطاعت الإمبريالية القديمة أن تنعش آخرها وأن تعيده إلى الحياة

من جديد، إذ عملت على نشر المدارس والجامعات والمشافي والمطابع، كما حسّنت المواصلات وزودت المدن بالكهرباء، وجلبت الأدوية الحديثة والطب الحديث وجعلته ميسوراً في كل مكان تقريباً. أما الإمبريالية الجديدة التي نشأت إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية فقد تخصصت بإلحاق الخصاء بآخرها. وقد صبت جل جهدها على العرب ابتغاء تحطيمهم وإعاقة نموهم وحرمانهم من كُل عزة وكرامة. أليس العرب أعداء الصهيونية؟

ويلوح لي أن السياسة الإمبريالية والصهيونية تسير وفقاً لهذا المبدأ المتحكم بالتاريخ العربي كله خلال السنوات الستين أو السبعين الأخيرة: ينبغي أن لا يكون للعرب أية قوة تسمح لهم بأن يرفعوا رؤوسهم.وما من شيء في هذه الأيام إلا وهو مكرس لخدمة هذا المبدأ. فلكم هي خساسة دنيئة أن يتحكم الإنسان الغربي بآخره الشرقي، وأن يجعل نهب البلدان في القارات الثلاث التي يسمونها المتخلفة، شرطاً تأسيسياً لنشوء الحضارة الغربية وتطورها باتجاه التضخم الدائم الذي سوف يقضي عليها ذات يوم من أيام المستقبل البعيد. أجل، إن أمماً بأسرها تعيش في رهاب العدوان السافر اللئيم، وذلك لكي يصاب الغربيون بالتخمة التي لا تملك أن تشبع نهمهم بتاتاً. فلكي لا تكون للعرب أية قوة تسمح لهم بأن يرفعوا

رؤوسهم، كان الانفصال وتبخر حلم الوحدة العربية وحلم الكرامة والشهامة في العالم العربي. ولا تلوح في الأفق المرئي أية زحزحة من شأنها أن تجلب أي انفراج، بل يبدو أن الأمر سوف يبقى على وضعه الراهن إلى أجل غير مسمى.

❖ ❖ ❖

وعلى أيه حال، أراني اليوم أشعر بأن القاضي الفاضل الذي ما أقام في دمشق سوى فترة وجيزة، قد أفلح و أجاد حين قال:

أما دمشق فجنة ينسى بها الوطنَ الغريب

أنظر بعينك، هل ترى إلا محباً أو حبيب؟

لكم أصاب ذلك القاضي الموهوب الذي خدم صلاح الدين الأيوبي . فلقد كان لدمشق من الأنس ما يكفي ليجعل الغريب ينسى غربته وحرقة انفصاله عن أهله وذويه .

خامساً - الغوطة

منذ أن وطئت قدماي أرض مخيم اليرموك سنة ١٩٥٦، ألفت التجول في الغوطة الغناء، حيث زرع مخيمنا هذا بعد قطع الشجر لتبنى مكانه أكواخ للاجئين الفلسطينيين. و لقد كان المخيم محاطاً بالغوطة من ثلاث جهات، أما الجهة الرابعة فتربطه بمدينة دمشق. ولقد ظل كل شيء حميماً وأنيساً حتى اندلعت فورة التضخم في السبعينيات، فأخذ العالم كله يتغير على نحو نوعي. وتغير معه مخيمنا، كما تغيرت الغوطة التي أخذت حركة البناء تفتك بها فتكاً عشوائياً، ربما ألحق بها أضراراً بليغة في المستقبل البعيد.

كنت أخرج كثيراً، ولاسيما خلال شهر نيسان اليانع الغضير، يوم تلبس الغوطة بزتها السندسية الأنيقة، لأبحث بين أحضان هذا الفردوس الأرضي عن أماكن ناعسة ساجية لايسكنها شيء سوى السكون نفسه. وفي الحق أن الغوطة كانت مأهولة بسكينة تشبه

السكينة التي تأهل الظلال في لوحات رامبرانت، وتلهم المرء صفاءً أثيرياً، مثل ذلك الصفاء التقوي الذي يراه المرء في بعض اللوحات الموحية بالكشف والإلهام.

ولست لأبالغ إذا ما صرحت بأن الغوطة كان يفعمها جمال خلاب في بعض الهنيهات، ولاسيما في برهة الغروب الشفقية التي تكاد أن تكون أنشودة مديح تترنم بمجد الله. حقاً إن ساعة الأصيل في الغوطة يومئذ هي أفضل من ساعة الأصيل في أي مكان آخر، وذلك نظراً لما تخلقه في النفس من شعور بالرونق والجمال.

وحيثما وجدت السكينة الساجية، كنت أستلقي على العشب السندسي اليانع وأسرح في عالم الأخيلة وأحلام اليقظة من كل جنس وفصيل. وفي كثير من الأحيان كنت أوغل في السير صوب الشرق أو صوب الجنوب الشرقي حتى أبلغ إلى مزار السيدة زينب. وهذا يعني أنني كنت أهيم على وجهي شريداً أو كالشريد، ليس لي أي هدف معين، إذ لم تكن غايتي سوى الاستجابة لنداء الحرية التي ينطوي عليها التشرد الصوفي المقدس، أو سوى الاستجابة لفضول يهمزني، بين الفينة و الفينة، كي أتحرك لأعرف ما يقبع هنالك

خلف أي أفق من الآفاق، أو سوى التمتع بمشهد الحياة وهي تتدفق من حولي خصيبة عارمة واسعة، حتى لكأن هدفي هو الولوج في جوف المجهول أو في متاهات اللامفهوم. وعندي أن المعرفة والاكتشاف والاطلاع لذة عزيزة جداً، وأن ألذ اللذائذ وأغزرها لن تكون إلا من نصيب المتضورين وحدهم. وهذا يعني أن مقدار لذتك يتناسب طرداً مع مقدار التضور الذي تقاسيه.

وفي بعض الأحيان كنت أهيم على وجهي بين الأشجار الباسقة، مكنوفاً بالإخضلال اليانع والسكينة الناعسة، فأسير وأسير حتى أمل من السير أو أتعب، فأطرح نفسي على الأرض لأرتاح ثم أعود أدراجي، فلا أصل إلى البيت إلا وقد أصابني ا لإنهاك.أجل، كنت أجوب الغوطة كأني ألوب على سر مكتوم تدخره الطبيعة وتأبى أن تبوح به على أي نحو من الأنحاء، وأشعر بأنها لو باحت به لتخلخل نظام الأشياء، أو تصدعت جدران الكون وتزلزلت أعمدته وتصادمت الكواكب وارتطم بعضها ببعض حتى تعود إلى الخاووس البدئي الذي تتحدث عنه الأساطير.

وربما شعر كل من تجول وحيداً بين الغابات أو البساتين الشبيهة بالأدغال، كما هو حال الغوطة، بأنها توحي للنفس بمشاعر متباينة، وأنها تحرض أسئلة تختلط فيها الغبطة والنشوة بالقلق والاضطراب. وهذا يعني أن التجول في الغوطة له القدرة على تشكيل الذات من جديد .ثم إنه لأمر ممتع أن تفتح نفسك على الاحتمال أو على الصدفة و المفاجأة، وكل ما هو مضمر أو ممكن أو مباغت.

❖ ❖ ❖

وبما أنه مامن أحد يملك أن يخترق الغوطة سيراً على الأقدام حتى طرفها الأقصى، فإنني بعد أن أصاب بالإنهاك كنت أرسخ في ذهني صورة عن شيء ظافر يمتد و يمتد صوب الشرق حتى أتخيل أنه يوازي اللانهاية. ولكن ماهو أهم من هذا الانتشار في جميع الجهات هو أن الأشياء تتبدى بهيجة ومأهولة بالعذوبة والروعة، بل كأنها تجسيد لبسمة كونية خلابة. والمحمول الأول لهذه البرهة البديعة، التي سقيت سلافاً فردوسياً منعشاً هو انتصار النفس على

السأم والرتوب وبلادة المياومة وتجاربها المكرورة. فما من شجرة ولا عشبة في الغوطة يومئذ، أعني قبل ظهور الأورام وجميع أصناف التضخم، ألا وهي تجسيد للأنس الذي لم يعد غزير الحضور في هذه الأيام العجاف.

وحين أجوب خلال تلك الفراديس المونقة لأعب من بهائها ورونقها وأنتشي بنضارة نسغها ودماثة معشرها، بعدما يمتص الوجدان فحوى الكثير من صورها المتنوعة ويستمتع بظلالها الكثيفة الوارفة، فقد كنت أشعر بأنني ألوذ بمقدس الطبيعة فراراً من هذا الحصار الذي تفرضه لزوجة المياومة وضحالتها وخلوها من النكهة المنعشة التي لا تمنحها لك إلا على ندرة وحسب. واعتدت في برهة التجوال أن أفكر أحياناً بالبوذا إذ يجوب الغابات وهو يلوب على الحقيقة أو يبتغي فحوى سرياً لا تبلغ إليه النفس إلا بعد لأي.وحين أكون في قلب تلك التجربة الشبيهة بالتشرد الصوفي الذي يمارسه أولياء الله، أو بعضهم، ولاسيما القلقين منهم، فقد كنت أهجس كثيراً بتلك النزعة الرامية إلى الاتصال بأعماق الكينونة، ولاسيما إذا كانت تلك النزعة نفسها شرهة عارمة، مما يجعل الأشياء تتبدى وكأنها مجذرة في الأزلية أو في السرمدية التي تجهل الاستحالة والزوال. وربما خطر في بالي مراراً، ولو لهنيهة مختزلة، أن الغوطة كلها ليست سوى بذرة في رحم ربة الخصوبة المعطاء.

ومن سجايا الغوطة يومئذ أنها تبادلك فرحاً بفرح، إن كنت رائق النفس أو في حالة ابتهاج. بل هي تزيدك فرحاً إن كنت فرحاً، وتهدئ روعك وتلطف توترك أو تخفضه، إن كنت مهموماً مغموماً أو خاضعاً لسيطرة الكآبة أو لعرام الملالة التي قد تنتج فيك شعوراً فحواه أن لا لزوم لهذه الحياة بتاتاً، بل لا لزوم لهذا الكون بأسره. وعندي أن المرء يحتاج إلى إجازة من اللعنة، يأخذها بين الحين والآخر، ولو لسويعة واحدة يستجم خلالها ويتخلص من كل توتر وإرهاق، وذلك ابتغاء تجديد قواه الروحية قبل أن يكدن نفسه تحت النير من جديد.

وفي أحضان هذا الفردوس الدنيوي الذي تغمره الظلال أيام القيظ، أو في سواء بحر من الزمرد الأخضر ذي اللغة القيثارية الحنون، كان في ميسور المرء أن ينال تلك الإجازة الذهبية، فينعم بالسكينة الهنيئة الملساء، أو يستمتع بالنسيم البليل، وكذلك بلغط الطيور وبألحانها الشبيهة بلغو الأطفال حين يأنسون بأحضان أمهاتهم. ولا غلو إذا ما زعمت بأن شقشقة العصافير الرخيمة مفعمة بنشوة صوفية لا تضاهيها نشوة النبيذ المعتق.

ولقد كان أمراً مألوفاً في كثير من الأحيان أن يرى المرء جيشاً لجباً من العصافير أو الشحارير، أو طيور السمان، يحط على شجرة واحدة شامخة باذخة، ويفعم الجو بنشيده الخلاب، حتى لكأنه ينشد

مديحاً للخالق العظيم.وعندئذ يشعر المرء بأنه مكنوف باللطف والروعة، مثله مثل العين المكنوفة بأجفانها الرؤوم .

ولقد كانت أطيار الغوطة، كأزهارها وأشجارها وجملة نباتاتها، متنوعة جد التنوع، حتى ليعسر على المرء أن يعد أصنافها كلها . ومن البديهي أن هذا التنوع الخصيب لهو أمر من شأنه أن يسهم في تأثيل جمالها وجاذبيتها، وأن يزيد من قدرتها على الخلب، وذلك لأن التنوع يلون الوقت ويكافح السأم ويحول بينه وبين العبث بالنفس أوبمحتوياتها الطيبة الزاكية. فما من شيء يلجم النفس ويشكم سورتها ويثلّم حيوتها أو يفلّ عنفوانها كما يفعل الرتوب والاعتياد والتكرار.

وكان فيها بعض الجداول العذبة التي تنبع من أرضها حصراً، وكان واحد من تلك الجداول يحاذي شارع اليرموك الراهن من جهته الغربية، واسمه المشرع . ولكنه اختفى ولم يعد يرى بتاتاً . ومن شأن هذه الوفرة الجمالية كلها أن تنتج الشعور بالدهشة أو بالروعة، وهو شعور لا ينتجه إلا الأخضر الزمردي البهي القادر على الإيحاء للنفس بان الحياة واقعة نفيسة لذيذة، وتستحق أن تعاش، على الرغم من جميع مثالبها و أوجاعها .

وفي بعض الأحيان يصادف المتجول مرجاً من السندس الأخضر توشيه زهور كثيرة الأصباغ والأشكال، وتزخرفه نباتات متباينة

تضيف التنوع إلى لوحته الخلابة، فتلونها بشتى الألوان الفاتنة المبهاج. وبذلك يتكامل المشهد بتنوعه وكثرة ألوانه، ولاسيما حين يتم تغويفه باللون الأبيض الذي هو لون زهور الاقاحي. وعندئذ تتفتح مسام النفس ليخرج منها السأم و الهم والغم و الحزن وكل ما هو من سلالة الكآبة.

فما كانت الغوطة إلا إنجازاً كبيراً من أجل السعادة والطمأنينة وهدأة البال، وإلا هبة نفيسة أو نعمة أنعمت بها العناية الكلية على البشر كي يذوقوا طعم الهناء في مقابل ما يعانون من شقاء. ولكن النبيه لن يفوته أن يلاحظ الجهد الذي بذلته الأيدي البشرية، أو قوة العمل المتحمس النشيط الدؤوب، لكي تصير هذه الجنة الزمنية إلى ما صارت إليه في تلك الأيام الرغيدة العذراء، يوم كانت الدنيا كلها لم تزل بكراً طافحة بالعذوبة والفتاء. وإلا كيف جاءت إلى الوجود هاتيك الخمائل الملتفة وأشجار الجوز العملاقة الشبيهة بالأيك والأدواح؟

ولشدة اخضرار العشب في الربيع، حينما تأخذ شآبيب النور في التدفق والفيضان الغزير، قد يشعر المتجول في الغوطة كأن النبات يتألف من النسغ وحده أو هو بغير ألياف وأنسجة من شأنها أن

تمسك السائل الأخضر المفعم بالحيوية والبهاء، فيتبدى كما لو أنه يتفور بشهوة الوجود، وكذلك بالرعشات الحالمة الناعمة الندية، بل لعله أن يتكون من يخضور وقصائد غزلية أترعت بالخصوبة والعذوبة، وذلك لشدة حضوره الغزير. وهذا الحلول العارم للحيوية في المملكة النباتية قد يشبه سريان الحقيقة الكلية في جميع الكائنات. وهذه فكرة أصيلة تحدث عنها ابن عربي بكثير من الإسهاب، ولاسيما في المجلد الثاني من «الفتوحات المكية»، الذي أراه واحداً من أجود الكتب العربية التراثية و أكثرها قيمة وأهمية.

وبفضل هذه الخصوبة وهذا الزخم الحي وغزارته المتدفقة العارمة، كان الدخول إلى الغوطة في الربيع أشبه بالانسحاب من فسحة الواقع ابتغاء الاتصال بمقدس الطبيعة أو بحرمها الطاهر. ولعل من شأن تلك البرهة الأسطورية أن تمنحك، يومئذ إجازة مؤقتة من ركود المألوف الآسن و المجحف بحق الروح. فالنسيم بين أواسط نيسان وأواسط نوار يغدو تجسيداً للطف بأم عينه، والحرارة في برهة التوسط بين الشتاء و الصيف، وكل عشبة تشتهي أن تستمر في الوجود إلى الأبد، وأن يصان شبابها الطري اليافع من كل تلف.

ويصدق هذا الزعم صدقاً خاصاً يوم رأيت الغوطة لأول مرة وأنا في غرارة العمر، أو في ريعانه الباسم الأنيس.

أما يانع الزهر، ولاسيما زهر المشمش واللوز والرمان، فكثيراً ما يكون فورة من فورات الطبيعة السخية المعطاء، وخصوصاً في الربيع، يوم يتأنق كل شيء أو يتأنث ويصير إلى الجمال والبهجة والتفتح على بكارته الخاصة، كما لو أنه غائب يعود من غياب طويل . ولبعض زهور الغوطة يومئذ أريج يتضوع ويفوح، فيمنح النفس نشوة تملك أن توقظ فيها اشتهاء العشق، أو أي صنف آخر من أصناف الاتصال العميق . بل لعل النفس أن تشعر بأنها هي التي تتضوع وتتفتح وتفوح في ذلك الشرط الفردوسي البهيج. فحين تتفتح الأكمام عن زهورها قد يشعر المرء بأن سريرته الوجدانية هي التي تتفتح وتستعد لاستقبال النور والشذى في آن واحد . وعندي أن محتويات السريرة الوجدانية هي أنفس النفائس في حياة الناس، وأن كل ما لا ينتسب إلى الوجدان أو ينبثق منه هو إحساس وحسب، أعني أنه لا يملك أن يصير شعوراً بأي حال من الأحوال.

ولا غلو إذا ما زعمت بأن الغوطة، في هاتيك الأيام الغابرة، تكاد أن تكون لوحة رسمها فنان عاشق ماهر، فلا مقرب يفضي إلى معناها سوى مقرب البصيرة الملهمة، وذلك إذا ما أراد المرء أن يذوق نكهتها على خير وجه ممكن. فيا له من مشهد فتان لم يخلق إلا ليكون تحفة غايتها أن ترفه عن النفس، وأن تسري عن مقلة العين الداخلية، وأن تنعش الروح وتزوده برعشة الهناء و الفرح، وذلك لأن جرعة كثيفة من المسرة قد تلج بواسطة ذلك المشهد إلى باطن المرء، أو إلى مركزه حصراً، ولاسيما بعد ما يتشرب الصورة الوسيمة ويتمثلها حتى درجة الالتحام.وإنها لجرعة ذاتية لذيذة قد لا تضاهيها أية جرعة أخرى إلا قليلا. وههنا يملك المرء أن يستوعب أمجاد المباشر والبسيط، أو ما أعطي للروح بالمجان، وعلى نحو فوري، أو دون أية وساطة مهما يك نوعها.

وكثيراً ما توهمت أن الغوطة، وخاصة حين ترتدي حللاً خضراً في الربيع، أو حصراً في شهر نيسان اليانع الأملد البهيج، ليست بستاناً كبيراً فقط، بل ليست جنة على الأرض وكفى، وإنما هي فكرة من أفكار الطبيعة الخلاقة، أو قصيدة نظمتها بلغتها الخاصة، أو لعلها رؤيا من رؤى روح شمولية تنتشر في الكون بأسره، حتى أدق تفاصيله

وجزئياته. وربما جاز التخيل بأنها صورة خرجت من فؤاد عاشق متيم ولهان، وذلك لأن الجمال لا يكون إلا حيثما كان العشق، إذ لا مرية في أن التضور أو التلهف هو قوة تسهم أيما إسهام في صنع القيم البشرية الحية. ولهذا، فإنني كثيراً ما شعرت بأن كل شجرة من أشجار الغوطة ليس لها أي وجود عيني أو خارجي، بل هي صورة خيالية يتأجج ألقها داخل روحي وحدها، حتى كأنني حامل لمحمول واحد هو الطبيعة و ما تدخره من أسرار ومستورات تبثها على مرأى من عين الوجدان.

لقد كانت الغوطة بضعة مني وأنا بضعة منها، أو لعلني كنت أشعر بهذا الشعور فأظنه الحقيقة نفسها، وذلك لشدة حضوره في فؤادي وصميم روحي. وعندي أن الأشياء لا قيمة لها إلا إذا صارت تشكل نسيجي الداخلي. فماذا عساها أن تكون قيمة نهر كبير أو صغير، يجري في بلد بعيد، ولا أدري به قط؟ ويصدق السؤال نفسه على غابة أو جبل أو بحيرة...الخ. ولهذا، يسعك الذهاب إلى أن للخارج سلطة غرامية وأخرى استبدادية أو اضطهادية على الوجدان، وخاصة إذا ما كان الباطن ناجياً من العكر و الهموم. وربما جاز القول بأن النفس قلما تكون جميلة إلا في حضرة الجميل وحده.

فلكم كنت أستمتع حين أستلقي في ظل دوحة هفهاف، واسترخي تمام الاسترخاء، ثم أطلق العنان لنزوات خيالي كي تنثال وتترادف وترتاد المجاهيل، وتستقصي النائيات، وتغوص في لجج اللامألوف وتجوس خلال كل صقع من أصقاع مملكة الوهم، وتظل كذلك حتى تمل من تدفقها الغزير، فتكف عن سيولتها وتتلاشى كي يؤوب الذهن إلى الواقع الفارغ كرة أخرى، بعدما يسرف في الاستجمام والانفلات الحر داخل فراديس الأحلام و الأوهام. وبما أن ذلك الاستجمام غاية في ذاته، إذ هو إجازة من اللعنة، لأنه إحياء للأنا أو محاولة تبتغي تجديدها أو إعادة توليدها، فإن كل ما يكبت الرؤيا ويكبحها هو شيء مرفوض.

فما أعذب ذلك التماس الدافئ بالمغيب وبالمخبوء المستقر وراء المرئيات. وبسبب هذا التماس، أو هذا النشاط الذاتي الديناميلاتظل العزلة أو الوحدة أمراً سلبياً مرذولاً، ولكنها تصير شأناً خيراً لذيذاً منعشاً يؤسس لانبعاث مجيد، وذلك لأن العزلة تلبي للنفس حاجات شديدة العمق. ويبدو أن الذات تحتاج، بل تحن، إلى ولادة

دائمة التجدد والتكرار. فإما أن تستولد روحك يومياً، وإما أن تكابد التأسن في عالم راكد بليد.

وكثيراً ما كنت أجدني في تلك البرهة الجديدة وأنا أجزم بأن الإنسان لا يتيسر له أن يكون حراً إلا حين ينشط وهمه أو خياله أو أحلامه فقط، وبأن الحنين هو أكثر قوى الإنسان توقداً أو توهجاً وقدرة على تحريض الذات أو تحريكها. ولهذا فإن الحب والحرارة والحرية والحركة ألفاظ تبدأ بحرف الحاء الذي هو حرف الحياة بشمولها واتساعها المنداح. ولعل مما هو في الجواز أن يقال بأن الحب لون من ألوان الحنين أو اللهف الذي يتخلص جوهره برغبة الذات في الإندلاع من الداخل إلى الخارج، إذ لا امتلاء لها ولا اكتفاء إلا إذا التحمت بالموائم المنشود.

❖ ❖ ❖

وكان في ميسور الروح يومئذ أن تذوق بكارة الدنيا ونكهتها الطيبة، وأن تشعر بأن ليس ثمة فرق كبير بين الحلم والحقيقة، أو بين الخيال والواقع، ولاسيما في طور ازهرار الشجر خلال شهر آذار ونيسان، يوم تصير الغوطة لوحة طبيعية فاتنة الجمال، وذلك قبل أن

يتواطأ عليها البناء والجفاف معاً. ومما قد لا يجهله الخبير بها أنها تمنح النفس فرصة ممتازة لتفاعل الحواس والوجدان والخيال ابتغاء إنجاز الشعور بالمتعة الجمالية المنعشة. وقد يكون هذا التفاعل المثلث أكبر عوامل المتعة الفنية التي يبحث عنها هواة الفنون.

وفي زعمي أن الحساسين المرهفين هم أقدر الناس على استيعاب فتون الغوطة، وكذلك على سماع نبض فؤادها الخفاق، بل حتى على تذوق جميع أصناف الجمال، ولاسيما جمال الطبيعة وأسرارها التي لا تستجيب إلا لقوة الحساسية والاستبصار اللذين يستطيع كل منهما أن يتواصل مع المستورات أو أن يمسها بأصالة، بل قد يملك أن يرى اللامرئي وأن يسمع نداء اللامسموع. ولهذا، فإن الحساس يشاهد في كل نبتة قلباً ينبض فيحرك دورة الأنساغ الهانئة السعيدة. وعندي أن نظرة الحدسيين من ذوي البصيرة هي شيء ينتسب إلى فصيلة الكشف والإلهام، أو لعلها من جنس الرؤى الذوقية المصروفة عن غير المختارين من أهل الأذواق.

فإذا ما أقبل شهر شباط وأزهر اللوز الذي يفتح مهرجان الطبيعة بإزهاره، فإنه يزف البشرى إلى الناس بأن أيام البرد الشديد قد ولت، وبأن الربيع الأنيس قد أخذ يدق الأبواب لتعبر البهجة إلى سويداء كل فؤاد أو كل نفس. ثم تتدلق الحيوية وتنتشر

في كل مكان حتى تغمر الغوطة كلها، فيخال المرء أن الروح، بل السر، قد عاد إلى الدنيا بعد غياب طويل. ويبدو أن الفرحة التي يخلقها الربيع وهو يجدد شباب الطبيعة تضاهي الفرحة التي تخلقها عودة شخص عزيز غاب عنك مدة طويلة من الزمن.

فالغوطة أثناء الربيع وأوائل الصيف، أو بين أواسط آذار وأواسط حزيران، أي حين تسرف في التأنق والتأنث، خلال ذلك الزمن البكر الذي مضى منذ ثلاثين سنة، أو زهاء ذلك، هي قصيدة أو أغنية مترعة بالحب والقدرة على الإحياء والإنعاش. ولهذا، فإن الحساس يعشقها من صميم روحه، تماماً كما يعشق الفتيان الفتيات الجميلات. فكل ما فيها خلال ذلك الطور البهي من شأنه أن يوحي بأن السماء والأرض تحتفلان معاً بواحد من أعياد الأرض المدهشة، أو بعرس من تلك الأعراس الكفيلة بتجديد ما تآكل من طاقات النفس، أو من قدرتها على الاستمرار في الحياة.

وفي بعض الأحيان كنت أتخيل أن الغوطة فورة يفرزها سر عظيم ليس الكون بأسره سوى تجليه الحي الفاتن الشفاف. ولهذا، قد يشعر المتجول المفتون بسحرها الخلاب أن لها جاذبية تشبه جاذبية

الخير نفسه. فهي أغنية تستنفر العنصر التجريدي لتحيله إلى واقعة من أجل الحواس، وخاصة من أجل العين التي هي الينبوع الأكبر في التجربة البشرية كلها، وهذا يعني أن القيمة إما أن تكون ذوقية أو روحية، وإما أن لا تكون بتاتاً. ولكن الأمر يختلف في الخريف كثيراً، إذ إن العذوبة تخمد أو تهمد، ويصير لون الغوطة رمادياً يخالطه شيء من الكآبة، ولاسيما في تشرين الثاني الذي هو شهر حزين، من جهة، وصوفي أو غموضي، من جهة أخرى. وما هو بصوفي إلا لأنه يوحي بالاستسرار و الغموض على نحو جليل وعميق.

❖ ❖ ❖

ههنا، في الغوطة، وفي الماضي القريب، كان كل شيء موشى، مزخرفاً أو مزوقاً، على نحو طبيعي أو تلقائي، بل إن الأشياء يزين بعضها بعضاً، أو هي تتآزر لتصنع زينة وحسناً أو رونقاً هو الفتنة نفسها. حتى الفضاء يوشيه اصطفاق أجنحة الطيور ويزخرفه صداحها الممتع البهيج، ولاسيما في مطالع الصيف، يوم يهب النسيم الغربي رهواً، أو ناعماً كالحرير، بل كالمخمل الأملس الطري. فيا لتلك الرطانة المنغومة التي تزركش المكان وتجعله من أجل الإذن بعد

ما كان من أجل العين. ولهذا، قدْ يشعر المرء، حين يكون في الغوطة، بأنه مكنوف بالخير من جميع الجهات ، وكذلك بالجمال الذي هو ذروة الخير، ويدرك لماذا صرح الأقدمون، أو بعضهم، بأنه ما ثمة إلا الخير وحده في هذه الدنيا كلها، وبأن الشر ليس سوى عرض زائل أو طارئ على الوجود، وليس من أصله الرفيع. فلئن كان الجامع الأموي تحفه حضارية أتحفنا بها التاريخ، فإن الغوطة تحفة طبيعية أتحفنا بها نهر بردى منذ آلاف السنين.

ولعل في ميسور أي فنان حساس من تلك الحقبة الماسية الغابرة أن يلاحظ ملاحظة مؤداها أن للغوطة لغة هادئة ناعمة تشبه لهجة فتاة دمشقية وسيمة مبهاج، ولكنها خفرة حيية في الوقت نفسه. فالغوطة، كما لا يخفى عليك، تخاطبك بصوت رخيم منغوم له رنين فضي لا يختلف كثيراً عن تغريد القبرات. فهي تحدثك بكلمات أرشق من النسيم البليل وأخف من الأثير الخالي من كل شيء إلا من العذوبة ورقة الروح، ولكنها لا تكتفي بالخطاب الصريح، بل تعمد إلى الإيماء والتلميح، أو إلى لغة الإشارة التي تغني عن العبارة. ولعمري، إنها لغة لا يفقهها إلا المختارون. فأنت محكوم عليك بما هو فيك سلفاً.

ولا يخفى أن الغوطة جنة أنتجها نهر بردى فجعلها واحة خضراء في وسط قفر يابس، وذلك بعدما تفرع إلى سبعة أنهر، ولكنه تقلص كثيراً بسبب الجفاف في هذه الأيام الماحلة.

وهذا يعني أن الغوطة تنطوي على هزيمة ساحقة أنزلها الماء بالصحراء و التصحر، هزيمة للموت ونصر للحياة والجمال وشباب الدنيا وجدتها الدائمة. فلئن كانت مصر هبة النيل - كما قال هيرودت - فإن الغوطة ودمشق معاً هما هبة بردى المعطاء، بكل تأكيد. ولعل أهم ما في أمر دمشق أنها كانت بالأمس دافئة وحنوناً، وتحضن الغريب كما تحضن الأم الرؤوم طفلها الصغير الرضيع.

وفي برهة لذيذة مثل تلك البرهة العذراء، أعني برهة الاتصال بالغوطة، أو الانغماس في الغبطة وبكارة الدنيا حتى سمت الرأس، بل في غبطة تشبه الثمل أو الخدر النشوان، لا بدلك من أن تنال حيوية أو نضارة وجدانية لها القدرة الكافية على أن تحول بينك وبين الرضوخ لأي هم أو غم أو عكورة. فالكآبة لا محل لها في الفراديس بتاتاً. وليس أمامك، حين تجوب الغوطة وحيداً، مثل طائر فرد يمخر عباب الفضاء، إلا أن تستمتع بلذائذ الطبيعة ومسراتها، وإلا أن تشاطرها عرسها وحياتها الثرية المعطاء.

فالمشهد غني بعناصر كثيرة متنوعة لا تتوقف على النبات والطيور، بل تتعدى ذلك إلى بعض من كائنات الطبيعة، كالغيم

والنسيم والنور المتألق المفرح، وكذلك الحيوانات البرية والأليفة في آن معاً. فالماعز والأغنام والأبقار وسواها من الكائنات الداجنة تملأ الغوطة، وبوسعك أن تراها أنى توجهت بالفعل. وقد تشاهد بعض الحيوانات غير الأليفة أو المتوحشة في بعض الأحيان، ولاسيما الزواحف، بل قد يظهر السنجاب في بعض الأحيان. وأرجح أن الغوطة لم تكن قبل ربع قرن من الآن تخلو من الضبع وابن آوى، على وجه الخصوص.

يا إلهي الطيب! لماذا تفر اللحظة الأنيقة الأنيسة ويتلاشى رونقها بسرعة تشبه سرعة البرق؟ ولماذا تكثر ساعات الضجر وتقل ساعات السرور في هذه الحياة التي خسرت عذوبتها ورواءها بعد ما تضخم فيها كل شيء وتورم؟

ولقد شاهدت العندليب مراراً في غوطة دمشق، وسمعته يغرد ويترنم بصوت شبيه بلغو الأطفال وكان ذلك قبل انتهاء عقد الستينيات، أي قبل أن يتمكن البناء من التهام رقعة واسعة جداً من الغوطة، أو من بساتينها اليانعة الفيحاء. وسمعت صوته المرتل المنغوم، الذي يملك أن يأسر الروح فيلهي المرء عن كل أمر. ولكنني ما رأيته بعد ذلك قط. ويا طالما بحثت عنه ونقبت وحاولت أن ألتقي به مرة أخرى، وبخاصة خلال شهر نوار الذي ألف الظهور فيه أمام الآذان، بل أمام أذني حصراً، يوم كنت لم أزل في ريق العمر ونشوته

البكر، أو في مرحلة هيفاء عذراء يسكر المرء أثناءها بصباه الأملد النشوان وسلاسة أحلامه ورؤاه. إنها مرحلة الريعان أو بكارة البدايات اللذيذة التي تتلاشى أو تزول قبل سواها من عناصر البهجة والسعادة والهناء. نعم، إن البكارة ترحل باكراً، وحينئذ لا يترسب سوى الذكريات والحسرة على مافات. وإلا، فماذا يبقى للإنسان بعد أن ينفد الريعان أو يزول؟

❖ ❖ ❖

فمما هو صادق تماماً أن سخام السيارات استطاع أن يطرد العنادل والقبرات من غوطة دمشق، بل أن يطرد كل ما هو جميل وأنيق، حتى لكأنه قد طرد الاستتباب أو الديمومة نفسها، وأحرز نصراً مؤزراً على الإنسانية، أو على فحواها بالضبط. ومما يحز في النفس أن كل ما هو من شيعة الفرح والابتهاج، أو من سلالة النفاسة والفتون، محتوم عليه أن يسحق في هذا الزمن الفوغائي المتطرف في عبادة المادة، والذي يتماهى إنسانه مع السلعة حتى لكأنه إياها وكأنها إياه، بحيث لا يعود في الميسور أن يتميز الواحد منهما عن الآخر أو ينفك.

وهذه هي السمة الاختزالية أو الإمساخية التي فرضتها الحياة الحديثة على الإنسان في هذا الزمن الاستهلاكي العسير. وعندما تماهى الكائن البشري مع الأشياء فإنه قد صار شيئاً خارجياً مثلها، صار شيئاً ملقى على الرصيف لا يأبه له أحد، وبذلك ألغي كل فرق أو تضاد بين الروح والمادة. وهذا هو بالضبط ماقصدته الفلسفة حين تحدثت عن التشيؤ في الزمن الحديث، وهو الذي لا تميزه صفة عن الأزمنة السالفة سوى الصناعة ومنتجات الصناعة من بضائع وأسلحة يتضاءل أمامها الجحيم نفسه.

فكثيراً ما أشعر أن الحضارة الحديثة، الإرهابية و الفوغائية معاً، والتي أنتجها الاستهلاك وحميات أخرى، هي ألد أعداء الجمال والحق والحياة السعيدة. وهي من المكر والخبث بحيث توهم الناس بأنها تقدم لهم الترف والرفاه حين تهرس العذوبة بأقدامها الفولاذية الساحقة. ومما لا يخفى على أهل الحساسية المرهفين أن رحمها المعدني، بخلاف رحم الطبيعة اللدن، لا يملك أن ينجب إلا القسوة والشراسة والبذاء. ترى، هل ستظل البشرية عرضة لمزيد من التآكل والرثاثة، سنة إثر أخرى، وإلى أجل غير مسمى؟

ولكن، أليس مما هو مثير للاستهجان أنه ما من شاعر منذ الطور الأموي حتى اليوم قد كتب قصيدة جيدة واحدة يغازل بها غوطة دمشق الغناء ذات الشجر الفينان، الذي إذا فتحه الربيع جعل منه فؤاداً فتياً يتفتح للحب والجمال والعيش الهنيء؟ أجل، لم تظهر الغوطة في الأدب الحديث على نحو متميز، مع أن لها قدرة نادرة على توجيه الوجدان نحو ينابيع اللغة ومصادرها الغزيرة. ومع أن الشعراء القدماء كتبوا الكثير من القصائد المخصصة للغوطة، فإنني لم أعثر قط على أية قصيدة ذات بال.

أو يعقل إلا ينفعل الشعر ولا النثر انفعالا أصلياً، اللهم إلا أن يكون ذلك على ندرة أو عجلة، طوال مئات السنين، بهذا الفردوس الهانئ الرائع الأنيس؟ وهل يتبقى للشعر أية أهمية أو قيمة إذا لم ينفعل بالبيئة والواقع، وبالظواهر والقوى الناشطة فيهما، سواء أكانت سلبية أم إيجابية؟ ولقد طالعت الكثير من القصائد المخصصة للغوطة أو لدمشق بوجه عام، وكذلك بعضاً من القصائد المخصصة لقاسيون أو للربوة، فلم أجد فيها ماهو شعر حقيقي إلا النزر اليسير، وذلك دون استثناء القصائد الحديثة، بما فيها واحدة لنزار قباني عنوانها (ترصيع بالذهب على سيف دمشقي). ومما هو صادق في ذهني دون أن يلزم أحداً سواي أن أجود ما كتب عن دمشق

من شعر حتى الآن هو القصيدتان اللتان كتبهما أحمد شوقي، مع أنهما تشبهان الخطب أكثر مما تتشبهان الفن الأصيل.

أما ما يثلب معظم ذلك الشعر فهو الخارجية التي تهيمن على أكثر من تسعة أعشاره. وأقصد بالخارجية ذلك الوصف الذي يقارب الموصوف وكأنه موضوع بغير محمول وجداني تقريباً، أو هو لا تربطه بالروح إلا صلة واهية. وهذا يعني أن ما ينقص غالبية تلك القصائد، فضلاً عن الخيال التصويري الفاتن والقادر على الخطف والأخذ إلى البعيد، هو الداخلية والنزعة الوجدانية، أو قل وجوب حلول الذات في الموضوع واتحادهما في بنية واحدة لا تعنو لأي انحلال. فالشعر الخالد، بل الفن العظيم بأسره، يأتي من خلد قصي، ويغوص في نواة الروح المتلقي حتى تتماهى تلك النواة مع الوافد العميق، أو حتى يصير من طبيعة الذات أومن لبابها حصراً.

وعندي أن مبدأ الحلول هذا، أو قل مفهوم الحلول، هو المبدأ الأول الصانع لمزية الفن النفيس كله، أو لعظمته وقدرته على الصمود في وجه الزمن وقواه التدميرية. وهو بالضبط ذلك المبدأ الذي أنجز الجامع الأموي وجعله تجسيداً للروعة، شاخصة أمام العيان السابر الفطين.

سادساً ـ خاتمة

أحسب أن هذا الكتيّب الصغير لا يفي بالغرض المنشود، أقصد الإحاطة بما هو من فصيلة اللباب، وذلك لأنه لم يستقص المدينة من جوانبها كافة. ومع أنه تحدث كثيراً عن آثارها، أو عن بعض ما تُحدر إلينا من الأزمنة الغابرة، فإنه قد ترك الكثير من تلك الآثار دون وصف، أو دون تفصيل، وربما دون ذكر مهما يك نوعه، ولاسيما حماماتها التي هي جزء من هويتها الفنية، أو من شخصيتها الموروثة، وكذلك قلعتها وبقايا أسوارها التي تستحق شيئاً من الاهتمام. فمما هو بحكم المؤكد أن في دمشق من الآثار النفيسة ما لا يحصى إلا بعد لأي. فلا غلو إذا ما زعمت بأن هذه المدينة كلها أثر من الماضي العريق، الأمر الذي قد يعني أنها برمتها متحف قائم بذاته. وبالبداهة، فإن المقصود هو الشطر القديم منها دون سواه.

وفضلاً عن ذلك، فإن هذا الكتيب قد أغفل الكثير من الشؤون الشديدة الأهمية كالتعليم والاجتماع والاقتصاد، وما إلى ذلك مما

هو في صلب الحياة العامة كما أنه لم يتطرق بتاتاً للوضع الثقافي الراهن، الذي هو الشيء الوحيد الباقي من كل ما هو قائم. فلم يعرض الكتيب لأي من المثقفين الأحياء في هذا الزمان، مع أنني أعرف الكثير من الفنانين الذين يمارسون الفن التشكيلي والكتابة الأدبية، ولاسيما كتابة الشعر والقصة والرواية. ولقد صار هؤلاء أكثر من رمل البحر في هذه الأيام. ألم يتضخم كل شيء؟ فلماذا لا تتضخم الكتابة التي جعلتها الطباعة الآلية الحديثة، وكذلك الصحافة والجامعات، أمراً قابلاً للفوران؟ ولكن يبدو أن هذه الفورة الكمية هي في ذاتها مؤشر إلى الندرة النوعية والكيفية.

ومما تجب الإشارة إليه لدى الحديث عن الثقافة في دمشق الحديثة أنني واكبت المسرح القومي منذ نشوئه سنة ١٩٦٢ وحتى اضمحلاله بعد هذا التاريخ ببضع عشرة سنة. ولوجه الحق الخالص أقول بأنه كان إنجازاً حضارياً فذاً، بل يصلح أن يُعد مفخرة من مفاخر دمشق المعاصرة. فلقد أخرجت تلك الحركة عدداً كبيراً من المسرحيات. والأهم من ذلك أن الإخراج والتمثيل كانا يتمتعان بمستوى رفيع جداً. وبودي أن أنوه تنويهاً خاصاً بمسرحية (العنب

الحامض) وكذلك بمسرحية أخرى عنوانها (زيارة السيدة العجوز) وعندي أن إخراج مسرحية (الأشجار تموت واقفة) للكاتب الإسباني كاسونا هي ذروة منجزات المسرح القومي في سوريا. ومما يؤسفني اليوم شديد الأسف أنني لم أحتفظ بأية يوميات تخص تلك الحركة المسرحية العظيمة حصراً.

ويحق المذهب نفسه على مهرجان دمشق المسرحي الذي لا أدري لماذا تلاشى في أواخر السبعينيات. ولقد أعيد انبعاثه من جديد هذا العام الجاري، ولا أدري ما إذا كان سوف يستمر أم لا. وثمة ظاهرة أخرى لافتة للانتباه في مضمار الثقافة، وهي مهرجان دمشق السينمائي، الذي واظب على استمراره طوال السنوات العشرين الأخيرة. أما معرض الكتاب السنوي الذي ابتدأ منذ ربع قرن، أو زهاء ذلك، فهو انجاز حضاري جدير بالاحترام، لا لأنه يمنح القارئ حسماً مالياً ملموساً، بل لأنه يجعل الكتاب متيسراً للجميع.

ثم انني أود أن أنوه تنويهاً خاصاً ببعض المثقفين الذين رأيتهم في دمشق. وأول هؤلاء هو الفنان التشكيلي نذير نبعة، وذلك نظراً لأسلوبه المتميز، الذي يسعني أن أنعته بنعت الغنائي أو القيثاري.

فهو، للحق، أسلوب أثيري مرهف شفاف لا يشبه أي أسلوب آخر قط. إنه أسلوب الرقة والروعة في زمن التجريد الذي أراه انحطاط الفن أو جنوحه صوب الاضمحلال، ما لم يتدارك نفسه قبل فوات الأوان. وإني لأتساءل عن السر الذي جعل فناناً تشكيلياً، مثل نذير نبعة، يحقق هذا الأسلوب البديع الرائق اللطيف في وسط هذا الاتضاع الشامل والآخذ بالانتشار دون أن تكبحه أية كوابح أو ضوابط.

ومن واجبي أن أنوه في هذه العجالة باسم زكريا تامر، وهو من طور فن القصة في سوريا على نحو موهوب حقاً. كما ينبغي أن أنوه باسم حنا مينا الذي صار واحداً من أعمدة الحركة الروائية في سوريا. أما محي الدين صبحي، ذلك الناقد الذي أخلص للنقد الأدبي أيما إخلاص، فقد ترك يوم وفاته فراغاً كبيراً قد لا يسده أحد. وفي الحق أن ثمة آخرين ممن يستحقون الذكر ههنا في هذا الموضع، ولكن ضيق المساحة لا يتسع للجميع.

ومهما يك جوهر الأمر، فإن هذا العمل الصغير الوجيز، لا يزيد عن كونه نظرة تكريم سريعة ألقيتها على مدينة لا يشرح تفاصيلها

الشرح الوافي إلا موسوعة كبيرة جداً. إنها المدينة التي استضافتني وأكرمتني طوال عشرات السنين، ويسرت أموري إلى حد بعيد. وإني أكتب هذا الكتاب لأشكرها على حسن الضيافة، وذلك بمناسبة اتخاذها عاصمة للثقافة العربية في هذه السنة.

وفضلاً عن ذلك، فإن هذا العمل قد بذل جهداً متواضعاً كي يدل على شرف الماضي ونبله وجودة إنجازاته، مما يتضمن ما فحواه أن الحاضر المتوتر المحموم هو ارتخاء أو توان على المستوى النوعي، إذا ما وازنته بعبقرية الموروث التي تعدها الحداثة والمحدثون نفاية متخلفة ليست بذات بال. ومن الغرائب أن يعتد هذا الطور التاريخي الحالي بنفسه إلى حد الإفراط، مع أنه جد عاجز عن أن ينتج الجميل، الذي هو جميل بأصالة وبإجماع كلي أو نسبي.

فريازة عصرنا الحديث هذا (ناطحات السحاب، مثلاً) تفتقر إلى أي عمق، أو إلى أي جمال، بل حتى إلى أي ذوق أصيل، وكل جمال تضفيه على نفسها لا يزيد عن كونه لحاء خارجياً رقيقاً، أو صنفاً من أصناف المكياج التي اصطنعتها شركات التجميل الزائف. فمما قد لا يخفى على الخبير بشؤون الريازة أن الشرفات تلصق إلصاقاً

بالمباني الحديثة ، فلا تتبدى بوصفها شطراً داخلياً من بنية البيوت . وهذا يعني أن الفراغ يظل خارجياً ولا يستضاف إلى الداخل ليتمم هوية الوجود. ويبدو لي أن الترخص الذي ألم بالمعايير في هذه الأيام الحديثة هو السبب الأول بين جميع الأسباب التي أفضت إلى الاسترخاء النوعي الشامل والسائد في كل مكان.

❖ ❖ ❖

ثم ها هي ذي أزمة الوجود البشري تتفاقم على جميع المستويات. كما أن معضلات المشروع التاريخي العالمي آخذة بالاستفحال يوماً عن يوم، وذلك بعد استشراء التضخم واشتداد التماهي مع البضائع بوجه عام، وبضائع الترف بوجه خاص، وذلك مما قد يؤدي إلى اضمحلال قيمة الإنسان في كل مكان. فبينما اعتقدت الحضارات الغابرة بأن الإنسان خلق على صورة الله، فإن هذه الحضارة الصناعية الراهنة تواظب باستمرار على أن ترسخ في الذهن فكرة فحواها أن الإنسان ما خلق إلا على صورة القرد. فقد كان هذا

العالم المنكوس يتقهقر إلى الخلف يوم كنا نظن بأنه يتقدم إلى الأمام.

ففي الصلب من مذهبي أن الحرب هي العامل الأول والأكبر في انهيار المجتمعات، بل في تدميرها وزوالها من الوجود. فالدولة الأموية الممتدة من فرنسا حتى الصين، ما هدمها إلا الحروب الكثيرة التي خاضتها في الداخل وفي الخارج. ويصدق الرأي نفسه على الإمبراطورية الرومانية، بفرعيها الغربي والشرقي. وبناء على هذا المبدأ نفسه، سوف يجوز الزعم بأن الحروب التي تخوضها القوى العظمى في زماننا الراهن قد تفضي إلى انهيارها، أو إلى جعلها كيانات هزيلة منخورة العظام. فلا يفرح المنتصر بانتصاراته لأن الغالب والمغلوب كليهما مهزوم، ولا نجاة من هذه النتيجة الحتمية بتاتاً .وربما جاز القول بأن ثمة عدالة نسبية في قلب المجرى الحي للتاريخ. ولكم هو أمر مثير للشفقة أن يعجز ساسة الدول الكبرى عن إدراك هذه الحقيقة، وهذا أمر من شأنه أن يتضمن إشارة إلى نقص في روح الحكمة والرشاد، كما يؤكد كذلك على أنهم لا دراية لهم ولا خبرة بعلم التاريخ وما ينطوي عليه من دروس. فالتاريخ هو علم

العلوم كلها، والجهل به هو الجهل بالحياة العامة بل هو الجهل بالضبط. فلعل أول درس ينبغي أن يعرفه قادة الدول الكبرى هو هذا: ما يبنيه التاريخ يهدمه التاريخ. وهذه حقيقة عبر عنها ابن عربي بطريقة فنية أو شاعرية حين قال: (يمحو بفاضل برده آثاره...) ومادام الأمر كذلك، فإن ما ينبغي أن يبنى هو ما يند عن الزوال السريع. وهذا يعني الالتزام بالخير، لا بالشر والعدوان.

وعلى أية حال، لا بد للذهن من أن يتساءل عن المصير مراراً وتكراراً، وعلى نحو متوتر أيضاً، بل لا بد له من أن يلحف في السؤال عما يسوّغ ما يجري في بعض البلدان المنكوبة بالأشرار إلى حد يتعذر تفسيره. ولا بد له كذلك من أن يتساءل عما سوف تؤول إليه الأمور في كوكبنا كله. فمما هو من فصيلة المسلّمات أن كرتنا الأرضية المسكينة قد صارت صغيرة بالفعل، فصدق ذلك الكندي الذي نعتها بأنها (قرية كونية)، ليس إلا. أجل، هذا هو عالم اليوم، قرية كونية، وينتظرها مصير واحد يشمل الجنس البشري كله. ففي الماضي البعيد فوجئ قادة الصين حينما علموا بوجود الإمبراطورية

الرومانية. أما اليوم، فإن المسافة بين بكين وروما يتيسر عبورها في نهار واحد فقط.

ومع أن الأفق المنظور لا يلوح عليه سوى النزر اليسير من بوارق الرجاء، وسوى شعاعة نحيلة هنا وأخرى هناك، مع ذلك ينبغي علينا أن نتشبث بخلجات الأمل، وأن نستبقي البسمة مشتعلة على الشفاه، وما ذاك إلا لأن التفاؤل والرجاء أنفع لصحة النفس من التشاؤم والقنوط، حتى وإن كان هذا الأخير هو وحده ما تفرزه الوقائع الراهنة يومياً، وعلى نحو تلقائي أو حتمي.فبغير الرجاء لا يبقى من الحياة سوى الاعتلاف بالتبن والزؤان.

مخيم اليرموك

نــوّار / ٢٠٠٨

فهرس

- كلمة.................... ٤
- نظرة على الماضي.................... ٦
- الدهشة الأولى.................... ٢١
- الجامع الأموي ومعالم أخرى.................... ٣٩
- عرس الوحدة.................... ٨٤
- الغوطة.................... ٩٥
- خاتمة.................... ١١٩